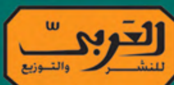


"شعرتُ وقتها أن أمي ربما تحبني" .

تـــاتـــي

كريستين دوير هيكي



ترجمة: هند عادل

روايات مترجمة



تاتي

تاتي

تأليف: كريستين دوير هيكي

ترجمة: هند عادل

مراجعة وتحرير: هدى فضل

مراجعة لغوية: محمد حامد

الطبعة الأولى: 2017

رقم الإيداع: 2017/7598

الترقيم الدولي: 9789773193362

الغلاف: خالد شريف



60شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Originally published by New Island Books



صدر هذا العمل بدعم من المؤسسة الأيرلندية للأدب.

كريستين دوير هيكي

تاتي

رواية من آيرلندا

ترجمة: هند عادل



بطاقة فهرسة

هيكي، كريستين دوير

تاتي: رواية من الأدب الآيرلندي/ تأليف: كريستين دوير هيكي، ترجمة: هند عادل.

ط1- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،

ص؛ سم.

1- القصص الآيرلندية

أ- عادل، هند (مترجم)

ب- العنوان 891.623

1964



تقول أمي إن الطفل لا يرى بوضوح. لا يرى حتى يديه أو قدميه. فهناك ذلك الحجاب الذي يُغطِّي عينيه فيجعل الرؤية مُشوَّشةً، لذا يـرى فقـط أشـكالنا تتحـرَّك ويـسمع أصـواتنا، لكنـه لا يعرف بعد من نحن. تقول أمي إنه مع مرور الأيام تظهر ثقوبٌ صغيرة في الحجاب، وتتَّسع شـيئًا فشيئًا حتى يتبدَّد الحجاب بأكمله.

عندما يحدث ذلك سيكون قـادرًا عـلى رؤيتنـا، ورؤيـة نفـسه. سـينظر إلينـا ويتعـرَّف عـلى أصواتنا جميعًا. عندها لن نكون مجرد أشكال، بل سنكون عائلته.

اليوم هو يوم تعميد الطفل.

لقد حصل على اسم. إنه اسمٌ يعني الضوء، لكنه أيضًا يحمل معنى آخر. إنـه يعنـي لـيس ساخنًا، وليس باردًا. قد يكون ذا دلالةٍ جيـدة أو سـيئة. فمـثلًا إن أردت إعـداد بعـض الـشاي وكانت المياه فاترة فهذا سيئ، أمَّا لو كانت مياه الاستحمام الخاصة بـ"ديرديـري" فـاترة فهـذا جيد، لأنها قد تحرق نفسها لو أن الماء شـديد الـسخونة. إنهـا تحـب البخـار المـتراقص أمامهـا وتحاول إمساكه بيديها، لذا لا يمكنك إبعاد عينيك عنها كما تقول أمي.

سكب القس مياه التعميد على الطفل وسـمَّاه "لـوك". أمـسك رأس الطفـل بإحدى يديه، وباليد الأخرى سكب الماء. انسكب الماء على مؤخرة رأس الطفل وعبرت من خلال أصابع القس البيضاء الكبيرة. عندئـذٍ فـتح الطفـل فمـه عـن

آخره وأخذ نفسًا كبيرًا، بعدها أخرجه. لم تسمع صوت صراخ بهذا العلو في حياتـك. إنـه أعـلى حتى من صوت "ديرديري". لقد دوَّى في الكنيسة كلها، وتردَّد صداه عبر الجدران.

قال العم "برين" إنه لا توجد مشكلة في رئتيه على كل حال. نظر بعض الكبار إلى بعـضهم الآخـر بعيونٍ مبتسمة. عندما تبكي "ديرديري"، ينظر الجميع إلى الأرض.

شعر الطفل بالتعب بعد كل هذا الصراخ فنام بين ذراعي العمة "سال" في طريـق عودتنـا من الكنيسة. قالت إن الطفل قد أتعب ذراعيها.

والآن استيقظ مجددًا، وتم إسناده ليجلس في مهده، لكي يستطيع الجميع رؤية ثوبه.

إن ضغطت بيديك على عينيك بشدة ثـم أبعـدتهما وفتحـت عينيـك، فربمـا تـرى كـما يـرى الطفل. سترى العديد من الدوائر البرتقالية والصفراء والبقع الملونة وملايين النجوم. انتظـر حتـى تزول وتعود رؤيتك للغرفة إلى طبيعتها، ثم انظر إلى سرير الطفـل مجـددًا سـتجد شـيئًا مختلفًـا هذه المرة، كأنه يستطيع الرؤية أو تقريبًا يرى بأي حال. إنه متحمس ويتحـرك ويطـرف بعينيـه، كما يخرج ويدخل لسانه. تداعب أصابعه الهواء وكأنه يريد إبعـاد الجـزء البـاقي مـن الحجـاب، ويركل بقدميه أطراف ثوبه. يمكنك أن تخمِّن ما يجعله متحمـسًا، إنـه يـرى اتـساع الثقـب أكـثر فأكثر، والغرفة تصير أكثر وضوحًا، تمامًا مـثلما يحـدث في التليفزيـون القـديم عنـدما تـدير الـزرَّ المستدير لتغيير القنوات حتى تجد صورةً واضحة. تخيَّل الذهول الذي يصيب ذلك الـصغير حـين يدرك أن هناك المزيد ليراه عوضًا عن البقع واللطخات والضوضاء الصادرة من هنا وهنـاك. عـليَّ أن أخبر أمي.

أنادي: "أمي، يستطيع الطفل الرؤية".

لكن أمي ليست هنا. "أمي! أمي!".

أجري إلى غرفة النوم. لا أجد أمي بها. أجد فقط معاطف ملقاة على السرير، وشفاهًا مستديرة تضع أحمر الشفاه، وعيني امرأة فوق هذه الشفاة تنظر إليك عبر المرآة.

- أين أمي؟

- إمممم؟

- أمي؟

- ليست لديَّ أي فكرة يا عزيزتي.

لم أجد أمي في أي مكان. لذا عدت إلى غرفة المعيشة لأجد عيني الطفل تدوران كالكاميرا. تتوقفان فقط لتطرفا ثم تعودا للنظر إلى مكانٍ آخر، وكأنه يملأ رأسه بصور فوتوغرافية للمنزل. لكن المنزل ليس على طبيعته اليوم. إنه مليء بالكؤوس وطفايات سجائر من البار. أين ذهبت أكوام الغسيل والجرائد التي تُلقى تحت الكنبة. ماذا لو ظن الطفل بأن المنزل دائمًا بهذا الشكل؟

بهذه الأشياء الموضوعة على الترابيزة والتي لا يُسمح بلمسها؛ الكيك المغطى بالكريمة، وأطباق الطعام الفاخرة، ومزهرية مليئة بالورودٌ، والكثير والكثير من البسكويت والكعك زهري اللون، كما يوجد مفرش ترابيزة أبيض كبير يجعل الترابيزة أشبه بالكعكة.

انتشرت الزجاجات في كل مكان، فوق دولاب أدوات المائدة أو في الحقائب البنية في الصالة أو في صندوق وراء الباب الخلفي. يشرب العم "مات" من زجاجة كبيرة وضخمة عليها صورة نقار خشب من الجهة الأمامية. تفور الزجاجة وتصدر صوت هسهسة حين يفتح الغطاء، ثم يخرج منها سائل أحمر جميل به فقاقيع يشبه عصير الليمون. لكن رائحته ليست كعصير الليمون بل مقززة للغاية.

تجلس مجموعة من الخالات والعمَّات ويقمن أحيانًا ليحضرن الساندويتشات.

يجري جمعٌ من أبناء العمومة في أنحاء المنزل أو يتوقفون أحيانًا ليفتن بعضهم على الآخر للكبار.

رجالٌ يستندون على الحائط ينظرون في ساعاتهم، ويملؤون كؤوسهم المائلة بالبيرة.

هناك أيضًا صف من الناس أمام الحمَّام.

وضيوف.. ضيوف في كل مكان، والضوضاء التي يصنعونها، والدخَّان يصعد في دوائر إلى السقف.

- أبي، أظن أن الطفل يستطيع الرؤية.

- افتحي النافذة.

يقولها أبي وهو يحرِّك يديه أمامه ليبعد الدخَّان.

- هيا افتحيها سريعًا قبل أن يختنق أبوكِ المسكين.

النافذة محكمة للغاية. سأنادي "جيني" وأخبرها أن الطفل يستطيع الرؤية. واحد.. اثنين.. ثلاثة، ثم ندفع النافذة معًا لفتحها، فيخرج الدخَّان منها.

أقترب من سرير الطفل وأميل برأسي داخله، فربما ينظر إليّ هذه المرة. أنادي "براين"، الذي ينزل عن حجر العمّة "سال" ويحشر خدَّيه الممتلئين بين أعمدة المهد. يقترب وجه "جيني" من الطفل وهي تهز شعرها المجعد وتداعب الطفل قائلة:

- أيها اللطيف الصغير، أيها البدين الظريف، أتراني؟ أنا أختك. نعم أنا...

- ابتعدوا عن سرير الصغير حالًا قبل أن تقلبوه. قلت ابتعدوا الآن.

قالت العمَّة "سال"، ثم عادت لتناول الساندويتش الخاص بها.

عندما يأكل الرجال الساندويتشات، فإنهم يفتحون أفواههم عن آخرها ويحشرون بها الطعام، أمَّا النساء فيقطعن بأصابعهن قطعةً قطعة.

تبدو اليد كرأس أوزة تقضم الساندويتش، وتبدو الأصابع كالمنقار. أحيانًـا يـرفعن النـصف العلوي من الساندويتش ويختلسن النظر لما بداخله ليتأكدن ما إذا كنّ يحبـن مـا بداخلـه أم لا، ثم يغلقنه مجددًا ويتناولنه على أي حال، حتى وإن كن لا يحببن حشوة الساندويتش.

- أبي، أظن.. أظن أن الطفل يرى.

لكن أبي يتحدث مع أصحابه الـذين ينظـرون في سـاعاتهم، وبعـض الأعـمام ينظـرون إلى العمَّات ليروا ما إذا كنّ يبادلهن النظر أم لا.

يتحدثون حول مغادرة المنزل والذهاب للبار. ستغضب أمي، لقد ظلت اليـومين الـسابقين تقول لأبي:

- إياك أن تفعل أو أن تفكر حتى في الذهاب للبار.

لكن أبي يكره المنازل والبقاء فيها. إنه يحب البـار. عنـدما نـزور أحـدهم يقـول: "شـكرًا لا أريد شايًا"، ثم يشير لصاحب المنـزل قـائلًا: "هـل أنـت بخـير؟ لمَ لا نـترك الـسيدات لحـديثهن ونخرج".

يحـل الظـلام أثنـاء عودتنـا بالـسيارة. أجلـس في الكـرسي الخلفـي، ويجلـس أبي وأمـي في المقدمة. يقول أبي جملًا طويلـة في حـين تتحـدث أمـي بالكـاد، لا بـد أنهـا مرهقـة مـن كـثرة الحديث مع السيدات.

يمكنني رؤية النوافذ في بلدةٍ مليئة بالأضواء والمحلات والأتوبيسات الكبيرة. أشعر بـوجهي يهتز كالهلام حين تخرج السيارة من البلدة إلى الطريق المرصوف بالحصى. أرى جميـع البيـوت المظلمة على كل الطرق المظلمة. ثم أستلقي وأنظر إلى أضواء الشارع البرتقالية وهـي تقودنـا للمنزل في خيطٍ برتقاليٍ طويل.

حين تذهـب إلى حفلة عيد ميلاد تتناول الجيلي والمثلجات والكعك وحلـوى الشوكولاتة المقرمشة. وتقول: "شكرًا جزيلًا على الحفلة الرائعة"، ثـم تعـود إلى المنـزل مـع الجميـع. أمَّـا إذا كنـت صـاحب الحفلـة، فـستقول: "شـكرًا جـزيلًا لحضوركم إلى حفلتي وعلى هداياكم الرائعة". حـين يرحـل الجميـع سـتفحص

هداياك مجددًا وتختار ما تفضله وما تكرهه منها. ستتفقد بطاقات المعايدة وتقرأ التهاني، ثم ستلعق الحلوى العالقة بنهاية الشموع، بعد ذلك ستشكر والدتك على الحفلة الرائعة وتساعدها في تنظيف الترابيزة.

لكن حين يقيم الكبار حفلة لا تجري الأمور بالمثل، فهم يتصرفون بطريقة غريبة بعض الشيء. أحيانًا يغنون، ولا بأس بذلك. إنهم يضحكون ويصفقون ويختارون شخصًا ليغني غصبًا. يسعد أبي وأمي بالغناء. تعرف أمي الكثير من الأغاني، عن الصيف، وعن الماس، وعن المليونير القديم الذي تحلم به. أمي هي أفضل مغنية على الإطلاق. إنها تغني كالمحترفين. أمَّا الخالة "جون" فهي الأفظع على الإطلاق، فصوتها مهتز وجاف. يصير العم "مات" مضحكًا حين يمثل دور امرأة، فيسير حاملًا حقيبة يد الخالة "ويني". عندها يقول الجميع أنه يُبكيهم من الضحك. أبي لا يغني، لكنه يقول كمًا مهولًا من النكات. الجميع سعداء ويصفقون. ثم يأتي وقت العودة للمنزل، ويتوقف والداي عن الاستمتاع مجددًا.

إن كانت الحفلة في منزلنا يذهب أبي إلى الفراش بعد أن تنتهي، وتظل أمي مستيقظة تشرب الخمر وتدخِّن السجائر. في اليوم التالي، يفوح المنزل بالروائح الكريهة، فنفتح النوافذ، ونتأكد من إفراغ جميع الزجاجات في الحوض قبل وضعها في الحقائب البنية خارج الباب الخلفي.

أحيانًا لا يكون هناك غناء، بل حديث فقط، على الرغم من أنه ليس حديثًا تمامًا بل صياحًا. إنهم لا يستمعون لبعضهم البعض، لأنهم ينتظرون فقط دورهم في الصياح. يعيدون الكلام نفسه مرارًا وتكرارًا. يتحدثون عن أمورٍ حدثت منذ سنواتٍ مضت. أحيانًا يبدأ النزاع عند تلك النقطة.

يعود الجميع لبيوتهم في مواعيدٍ مختلفة. إن غادر أحدهم مبكرًا يتحدث الآخرون عنه دومًا. ستضطر لسماع الكثير من الأحاديث، لأنهم نسوا إخراجك من المكان. إنهم مشغولون للغاية بالصياح ولا يلاحظون شيئًا. إنهم لا يلاحظون شيئًا أبدًا. حتى الآن لا يلاحظون أن الطفل يستطيع الرؤية.

1965



قبل بلوغي الخامسة، ضعت في أحد سباقات الخيل، في لحظة كنت أقف تحت معطف المطر البني الطويل لأبي، وفي اللحظة التالية ضعت.

أقف تحت معطف المطر البني الطويل، وأشعر وكأنني في خيمتي الخاصة الصغيرة. أستطيع سماع كل ما يدور بالخارج، لكني أرى فقط ما بداخل الخيمة. كانت البطانة لامعة ومليئة بالنتوءات، بسبب الأشياء التي سقطت من الجيوب إلى البطانة الداخلية لمعطف المطر. هناك قلم، وزجاجة حبوب، وبعض النقود المعدنية التي استقرت في أطراف المعطف من أسفل. أمَّا الأشياء الكبيرة، فاستقرت في الجيوب، مثل جريدة الأخبار، والمفكرة، وعلبة دواء أملاح الكبد. هناك أيضًا كتيب به أسماء خيول السباق التي يقرؤها أبي دائمًا.

يمكنني رؤية انتفاخ في طرف معطفه، إنه منظاره. كما أسمع صوت الشارات الصغيرة المعلقة في حزام المنظار كلما حرك أبي ذراعه. أرى شكل جسد أبي المظلم تحت معطفه. أسمع خطوات الناس تجري بجواره تحت المطر.

أخبرني أبي أنه حين يعطيني الإشارة، عليَّ التمسك بسترته قدر المستطاع لأنه سيجري، وعليَّ أن أجري خلفه بأقصى سرعة كحصان السيرك. ثم سألني إن كنت قد فهمت قصده.

لم أفهم شيئًا، لكن أعجبني الوضع بأي حال، ولم أطق صبرًا حتى يبدأ أبي.

خلعت القفازات حتى أتمسك جيدًا بمعطف أبي. ثم حركت قدميّ لأعلى ولأسفل استعدادًا للركض لحظة الإشارة. لكن المطر يهطل بعنف، كان غزيرًا وقارس البرودة. لذا غـيَّر أبي خطتتـه وقرر أن يتركني خلفه. سحب معطفه بعيدًا عني ورفعني ثـم أنزلنـي أمـام ممرٍ قريـبٍ مـن حمام الرجال كريه الرائحة.

أمرني قائلًا: "انتظريني هنا حتى أعود. أتفهمين؟ لا تتحركي بوصةً واحدة".

رفع ياقة ثيابي لتغطي أذنيّ وطلب مني ارتداء القفَّازات مجددًا، ثم أمال قبَّعتي الـصوفية لتغطي جبهتي، وغادر.

بمجرد أن اختفي معطف المطر البني الطويل من أمام ناظري حتى جريت خلفـه، لكننـي وجدت العديد من الأجساد الكبيرة من حولي والعديد من المعاطف البنية، بينما استمر المطـر في ضرب وجهي. لذا عدت للداخل وذهبت إلى مصدر الحرارة المنبعثة من البار.

حين عاد أبي إلى الممر لم يجد أثرًا لي، فاستند إلى الحـائط للحظـة، ثـم بحـث عنـي في كـل مكانٍ، وهو يشد أكمام الناس. "هل رأيتها؟ هل رأيتهـا؟ فتـاة صـغيرة بهـذا الحجـم... شـعرها بلون النحاس وتنزل منه خصلاتٍ على جبهتها؟".

ظل يسألهم عن فتاة صغيرة خصلاتها تنزل على جبهتها، وقد نسي تمامًا أنه أخفى خصلات شعري تحت قبعتي.

نادى صوتٌ من السماء على اسمي. لقد أخبر الجميع بشأني. أخبرهم عن اسـمي، وسـني، وحجمي، وأين أعيش، وماذا أرتدي، معطفًـا بنيًـا وبنطـالًا بنيًـا أيـضًا وسـترةً صـفراء. لقَّـن أبي الصوت ماذا يقول. لو كانت أمي لاختلف وصف الثياب.

لـو أنهـا أمـي لقالـت: "معطـف صـوفي بلـون البـسكويت، وبنطـال بلـون الشوكولاتة، وسترة ذات ياقة بلون الخردل، وقبَّعة صوفية بلون الكريمة". تتحدث أمي دومًـا عـن الثيـاب وكأنهـا طعـام. لكـن أمـي لا تـذهب لـسباقات الخيـول. إنهـا تبقـى في المنـزل مـع "ديرديـري" و"جينـي" و"بـراين" والطفـل "لـوك"، لأن

"جيني" قد تصاب بأزمة ربو، ولأن أمي لا تحب أن تطلب من أحد الاعتناء بـ"ديرديري" بـدلًا عنها.

عندما وجدني أبي كنت جالسة فوق صندوقٍ من البيرة. أحد خديٍّ كان محمرًا بسبب المدفأة بجواري، بينما أمتص عصير البرتقال الفوَّار. إحدى يديٍّ كانت فوق المدفأة ويتدلى قفازي من معصمي بخيطٍ متصل بكم معطفي. عندئذٍ بدأ بالصياح في الجرسون قائلًا:

- ألم تسمع اسمها في الإعلان؟ أيها القذر الغبي، هل أنت أصم؟

رد عليه الجرسون:

- كيف سأسمع شيئًا وسط هذا الصخب؟ ثم ألا تراها مرتاحة هنا ولا يزعجها أحد؟ أليست دافئة على الأقل؟

- ليس من حقك أخذها هكذا.

قلت أنا:

- لم يأخذني. لقد دخلت من تلقاء نفسي.

- لِمَ فعلتِ ذلك؟

- لأن المطر ظل يضرب وجهي، كما أني أكره رائحة حمَّام الرجال الكريهة.

عندها بدأ أبي بالضحك. رفعني وأجلسني على البار، وكان على جميع الرجال سماع قصة إيجاده لي حين ضعت. ظللت أقول: "لم أكن ضائعة، لم أضع، لم أضع".

لكن لم يسمعني أحد، فالمكان مليء بأصوات الرجال الكبار هنا وهناك.

قال لي أبي:

- من الأفضل ألا تخبري أمك وإلا ستقتلني. أتفهمين؟ ألن تسببي لي مشكلة؟

- لن أفعل.

- أهذا وعدٌ كبير؟

- نعم يا أبي.

- عديني.

- أعدك وعدًا كبيرًا.

عندما فُتح الباب الأمامي، ركضت من تحت ذراعه وصحت في المنزل: "أمي! أمي! لم أكـن ضائعة، لم أضع. قالوا إني ضعت، لكنني لم أضع، لم أضع". تلك هـي بدايـة حـصولي عـلى اسـم "تاتي"[1]. لكن لم يُطلق عليَّ هذا الاسم في ذلك اليوم، بل لاحقًا عندما تخطيت الخامسة بقليل، عندما صرت معتادةً على الذهاب مع أبي إلى كل مكان.

***

عندما أذهب إلى العمل مع أبي، أستيقظ والظلام لا يزال سائدًا، ولا يُسمَح لي بالكلام حتى لا أوقظ من بالمنزل وحتى يتسنى لأبي سماع النـشرة الجويـة عـلى الراديـو. بعـد ذلـك أركـب السيَّارة معه، ولا أرى سيَّارة غيرها على الطريق لوقت طويل.

ينادي أبي الرجال. تتوقف السيَّارة أمام بيت كلٍ منهم، ويـسمح أبي لي بـإطلاق الكلاكـس. بيت "جاكي ماك" كبير وضخم، مليء بالأبواب والنوافـذ. يطـل بوجهـه حـين يـسمع الكلاكـس. يكون مرتديًا قميصًا وربطة عنق. يقول أبي إنه هكذا لأنه ينام بثيـاب العمـل والـسرير بجـوار النافذة بالضبط. لذا كل ما عليه فعله في الصباح هو الجلـوس عـلى سريـره ليبـدو وكأنـه قـد استيقظ بالفعل ومستعد للعمل.

(1)- معني "تاتي - Tatty" بالإنجليزية هي الطفلة الثرثارة التي تختلق قصصًا، وهو اختصارٌ لجملة "tell tale tattler".

هذا مضحكٌ للغاية. لا أستطيع التوقف عن الضحك حين أفكر في "جاكي ماك" الـذي ينـام بثيابه ويطل برأسه من النافذة. يقـول أبي إنّي أشـبه سـمكةٍ تتلـوى في الكـرسي الخلفـي. هـذا يضحكني أكثر فأكثر حتى أكاد أبلل بنطالي. عند ذلك يضحك أبي أيضًا.

- أبي؟

- ماذا؟

- لو أنك المدير، لماذا إذًا منزله أكبر من منزلنا؟

- هذا ليس بيتًا، بل هي شقق.

- ماذا تعني؟

- أعني أنه ليس مالك البيت بأكمله.

في البداية كانت السيارة فارغة، ثم ملأها الرجال واحدًا وراء الآخر، حتـى ينتهـي بي الأمـر محشورة بجوار النافذة أو على حجر أحدهم.

حجر "بيج كويجلي" مريح وسمين، إنما حجر "جاكي ماك" نحيل جدًا. عندما يركب السيَّارة يبدو وكأنه ما يزال نائمًا، وحين يرجع رأسه للوراء يمكنك سماع صوت شخيره الصغير في أذنيك. تمتلئ السيارة برائحة الرجال والطلاء والصابون والبصل من غداء الرجال. على الأرجـح لا أحـد يتحدث بخلاف أبي الذي يخبرهم عن مهامهم لليـوم، لـذا لا يوجـد مـا تـسمعه سـوى صـوت السعال والتثاؤب وإشعال الثقاب، تليه أنفاسٌ من الدخان تخرج من بين أسنانهم.

يقود أبي سيَّارته في الريف، يوصـل رجـالًا ويـصطحب غـيرهم، بيـنما لا يـزال كـل شيءٍ غارقًـا في الظلام، ثم شيئًا فشيئًا يبدأ النهار في الـسيطرة. بعـد ذلـك عـلى أبي القيـام بعملـه. إنـه يعـبر بوابـاتٍ مختلفة ويمر بباحاتٍ كثيرة، يطرق الأبواب، ويصافح الأيدي، ويتسلق السلم ممسكًا بـشريط القيـاس الكبير الخاص به، ويقف أسفل سلالم المصنع ليعد علـب الطـلاء التـي تتـدحرج عـلى الـسير. يـصفع

الباب عند دخوله، ثـم يـصفعه مجـددًا عنـد خروجـه، "بـووم!"، "بـووم"، ويظـل يفعـل هـذا "بوووم!"، "بوووم!" حتى ينتهي عمله ويحين موعد الذهاب إلى البار.

عندما أخرج مع الرجال أذهب معهم إلى البار. أجد نفسي موضوعة على كرسي أمام البـار، ويُسمح لي بفعل أشياء يجب ألا أذكرها لأمي. أحيانًا أشرب قدرًا ضئيلًا من البيرة القوية.

يقول أبي للنادل: "أحضر الكثير لي والقليل لرفيقتي هنا".

مذاقها يشبه طعم حليبٍ رائبٍ أسود اللون، فهي لاذعةٌ وكثيفة. أشـعر بهـا وهـي تلـسع أُذُنَيّ من الداخل أثناء نزولها إلى معدتي. لكنني أشربها على أي حال ثم أصدر "هـاااا" طويلـة كما يفعل أبي، بعدها أقوم بمسح فمي بظهر يدي، وأقول: "أريد الذهاب إلى المرحـاض"، حتـى ولو لم أكن أريد الذهاب إليه، بعدها ينزلني أبي عن البار، وينسى الرجال أمري تمامًا.

يمكنني فتح صنابير المياه كلها، يمكنني تنظيم سباق بين المراحيض؛ حيث أظل أجري بينهـا جميعًا وأشد السيفون بها. يمكنني فتح جميع الأبواب وإغلاقها مجددًا بعنف، يمكنني العـودة إلى البار والجلوس على جميع الكراسي الهزازة الموضوعة بجوار الحائط.

في بعض البارات يمكنني معرفة أين زوجة صاحب البار. في العادة تكون في المطبخ. أحيانًـا يكون المطبخ أعلى السلالم المظلمة. مسكنهم بالكامل يكون في الـدور العلـوي ويـشمل غرفـة معيشة، وغرفة طعام، وكل ذلك. بعض البارات تحتوى على بيانو في مساحةٍ فارغة على السُلَّم بين الطابقين. لكن أحيانًا أخرى يكون في الباحة الخلفية الباردة بـين الـدجاج الأحمـر الأحمـق الراكض في كل مكان، أو قد يكون في مؤخرة البار وحسب.

أحب التجوُّل في جميع أنحاء البار لاستكشافه.

يمكننــي رؤيــة الزجاجــات مرصوصــةً عــلى الأرفــف، زجاجــات برتقــال وتــوت أسـود وليمـون. كـما توجـد صـفوفٌ مـن الكـؤوس وبرطمانـات الخـردل، وصـندوقٌ

كبير بداخله أكياس بطاطس شيبسي. توجد في المكان سلة القمامة، حيث يلقـي صـاحب البـار أعقاب السجائر والمناديل المستعملة ودهن اللحم. تتناثر آثار أقدامـه المتـشابكة عـلى نـشارة الخـشب الموجـودة في كـل مكـان، كـما تتنـاثر أغطيـة الزجاجـات الفـضية وبقـع مـن البـيرة المسكوبة. هناك حوضٌ منخفض تُغسل فيه الكؤوس، كما يوجـد صـندوق الرهانـات. يمكننـي رؤية كل ذلك حين أدخل البار وأصل لآخره، ثم أعود أدراجي. عندها يقول صاحب البار: "هيا ادخلي، لا تكوني خجولة. ادخلي، إنها لن تمانع".

ثم أجد نفسي في المطبخ.

ربما تسألني زوجة صاحب البار: "هل أكلت غداءك أم لا؟"، وأنـا دائمًـا.. دائمًـا، مـا أجيبهـا بـ"لا".

هناك دومًا طعام غريب في مطابخ الآخـرين. طعـام لا يـشبه مـا تعـده أمـي. قـد تكـون المكونات نفسها، لكنهم يضعونها بطريقةٍ مختلفة في الطبق، لذا يختلف مذاقها.

في إحدى المرات أعدت زوجة صاحب البار قلب ديكٍ رومي محشو، ومرة أخـرى قطَّعـت بيضًا وقرنبيطًا على شكل رقائقٍ رفيعة. وذات مرة أعدت خمس قطع من البسكويت المحـشو بالكريمة وشايًا في كوبٍ كبير بعد إحدى الوجبات. كنت شرهة إلى حدٍ مـا، وكـأنني قـد أكلـت وجبتين مرةٍ واحدة، لأن أمي في العادة تعطيني قطعتين من البسكويت في وقت الشاي فقـط. ذات مرة أخرى أعدت بعضًا من السجق الأبيض والبطاطس المهروسة، وأخرجـت شـيئًا معلبًـا مقززًا اسمه سلطة روسية. كانت تلك أغرب وجبة على الإطلاق.

تلك المرأة التي تعد وجبتي قد تسألني عن شؤوني. وعلى الرغم مـن تحـذير أمـي لي بـألا أخبر هؤلاء الغرباء الفضوليين بشؤوني، فـإنني أحيانًـا أرتبـك وأنـسى. مـن الـصعب معرفـة مـا يُسمَح بقوله وما يجب ألا أقوله. أحيانًا يقولون لي: "قولي الحقيقـة ولـو كانـت مُـرَّة"، وأحيانًـا أخرى يقولون: "لمَ قلتِ لهم ذلك؟ يمكنني أن أقتلك بسبب ما قلته".

تقول أمي إنه حين يسألني أحدٌ عن شيء ما، يجب أن أقول: "لا أعرف". لكن الأسئلة تكاد تكون نفسها في كل مرة، مثلًا هل لدينا تليفزيون؟ كم غرفةً لدينا؟ كم عـدد إخـوتي وأخـواتي؟ ومن الغباء ألا أعرف شيئًا مثل هل نملك تليفزيونًا أم ولا، وكم عدد غرفنا وإخوتي وأخواتي.

سألتني سيدة بسكويت "كيمبرلي" الآيرلندي أسئلة مختلفة. سألتني:

- كيف حالك والدتك؟ أمازالت فاتنة حقيقية؟

- ماذا تعني كلمة فاتنة؟

- أما زالت ترتدي ثيابًا جميلة؟

- لا أعرف.

- حسنًا، أما زالت جميلة ونحيفة؟

- لا، ما يزال بطنها كبيرًا قليلًا بعد ولادة أخي الرضيع "لوك".

- طفلٌ آخر؟! يا إلهي، يبدو أن والدك لا يرحمها.

تملك سيدة البسكويت تليفزيونًا في مطبخها، كان به رجلٌ وامرأة يتجادلان عـلى الـشاشة. قالت سيدة البسكويت إنها تعرف أبي منذ زمن. كان محطمًا للقلوب بحـق حتـى إن أحـدهم لم يـصدق حـين تـزوج مـن أمـي التـي كانـت فتـاةً صـغيرة وقتهـا. بعـد ذلـك بـدأت تـشاهد التليفزيون.

كانت المرأة في التليفزيون ترتدي مريلةً مزخرفة وتتشاجر مـع رجـل. في كـل مـرة تـصرخ فيها يضحك جمهور غير مرئي في التليفزيون.

سألتني سيدة البسكويت:

- هل تتشاجر والدتك مع والدك؟

- لا أعرف.

- مثلًا إن عاد إلى المنزل سكران، هل تتشاجر معه؟

- لا أعرف.

- أوه، أليس هذا رائعًا! يبدو أن والدتك متساهلة للغاية، أليس كذلك؟

- إممم...

- إذًا لا يتشاجر والداكِ أبدًا، أهذا ما تخبرينني به؟

- أتعنين مثل مباراة الملاكمة؟

- لا، بل نزاع. مثل الرجل والمرأة في التليفزيون الآن.

- لا أعرف. ما كنت لأسمعهما أثناء نومي، لكني كنت لأسمع ضحكات الناس جميعًا.

- لا، لن يكون هناك ضحك. هذا في التليفزيون فقط.

- أوه؟ حسنًا، لا أعرف لأني قد لا أسمعهما بأي حال. قد لا أسمعهما وهما يصرخان ويهين أحدهما الآخر. قد لا أعرف إن كانت أمي تصرخ وأبي يصفق الأبواب. قد لا أعرف أن أمي تبكي وحدها في غرفة المعيشة. حسنًا، قد لا أعرف ذلك.

- أهذا يحدث الآن؟

شعرتُ بالتوتر وهي تسألني عن أبي وأمي. شعرتُ بالخجل والخوف إن كنت أخطأت في قول شيء يجعلني أقع في المشكلات مع أمي.

لذا حين سألتني زوجة صاحب البار مجددًا عن شؤوني لم أقل إني لا أعرف، بل كذبت. قلت إنه لدينا ثلاثة تليفزيونات وعشر غرف نوم، وإن أمي ترتدي فستان زفافها وقبعةً كبيرة وهي تغسل الصحون وتمسح الأرض. وقد أضحك هذا الكلام المرأة بشدة وقالت إني فتاةٌ عنيدة.

قالت المرأة:

- يا لكِ من فتاةٍ عنيدة!

ثم عاودت الضحك.

كان لطيفًا أني جعلت المرأة تضحك. كان لطيفًا وأسهل كثيرًا من قول الحقيقة.

عندما أخرج مع النساء يذهبن للمحلات أو لزيارة أحد المنازل. قد يسمحن لي باللعب خارجًا إن لم يكن الجو ممطرًا. لكن إن كان الجو ممطرًا، فعليَّ أن أحسن التصرف في الداخل. إن كانت صاحبة البيت شخصًا سمحًا قد تسمح لي أمي بالجلوس في غرفة المعيشة. إن كان التليفزيون يعمل، يمكنني مشاهدة مسلسل "أنا أحلم بجيني"، أو برنامج الأطفال "جاكانوري" أو مسلسل "العبقري" (Cracker jack) لو أنه يوم جمعة. أحيانًا تسمى غرفة المعيشة صالة الاستقبال، أو غرفة الجلوس، أو ربما الغرفة الأمامية. لكن إن كانت الغرفة في منزل "أليس" صديقة أمي فتسمى غرفة الاستراحة.

سألت أبي لماذا تسمي "أليس" غرفة جلوسها غرفة الاستراحة "lounge" مع أنها ليست حانة؟

أجابني قائلًا: "ولِمَ لا بحق الجحيم؟!".

إن كان المنزل لشخصٍ عصبي إذًا عليَّ البقاء مع أمي حتى لا أكسر شيئًا. مما يعني أنه عليَّ البقاء مع النساء.

إنهن يبقين في المطبخ، ويجلسن حول المائدة وهن يدخن ويشربن الشاي، ويغتبن الرجال. هذا تصرفٌ سيئ لأن الرجال لا يتحدثون عنهن قط.

إنهم يقولون "ماذا ستتناول يا رجل؟" أو "ما رأيك بذلك؟" أو "يتحدثون عن الخيل وأخبارٍ أخرى من الصحف". قد يرسلوني أحيانًا خارجًا برسالةٍ لشخصٍ آخر.

***

أعطاني الجرسون من بار "ميو" كيس شيبسي يُدعى "كينج كريسبس". أعطاني إيَّاه لأنني عبرت الطريق إلى وكيل المراهنات بنفسي ومعي ورقة مهمة في ظرف. نظرت عن يميني ويساري ثم يميني مجددًا. وقفت على أطراف

أصابعي ومددت يدي إلى الرجل في محل المراهنات فأخذ الظرف مني. ثم أعاده إليَّ وبداخله تذاكر صغيرة ملونة.

نظرت إلى اليمين واليسار ثم إلى اليمين. دفعت الباب الزجاجي الكبير بأقصى قوتي. وهكذا عدت للبار. كانت تلك البطاطس أشهى ما تذوقت، وسألتُ أبي إذا ما كنَّا نستطيع الانتقال إلى "كاسِّل نوك" حتى آكل "كينجز كريسبس" طوال الوقت. قال لي إنه عليَّ الانتظار حتى أكبر وأتزوج رجلًا ثريًا لأعيش في بيت مليونير.

- ماذا يعني "ثري" يا أبي؟

- الكثير من المال.

- ماذا يعني "مليونير"؟

- الكثير، والكثير من الأموال. أترين ذلك الرجل الجالس هناك؟ إنه مليونير.

"هراء!"، صاح ذلك الرجل قائلًا: "هذا هراء!".

لكن لا بد أن أبي قد أخطأ بشأن ذلك الرجل فهو لم يشترِ حتى أي شراب، فقط أبي فعل ذلك مجددًا. لقد أخرج حفنةً كبيرةً من النقود من جيبه ثم لعق إبهامه وسحب ورقةً نقدية. أشار بالورقة النقدية إلى كؤوس جميع الرجال، وزفر الجرسون نفسًا كبيرًا وقال: "تريد شرابًا آخر كما أظن"، وكأنه سأم من أن يشتري أبي فقط الخمر للجميع.

تمنَّى الرجال لأبي حظًا طيبًا. ثم شاهدوا التليفزيون وبدأوا بالصياح وهم يشاهدون سباق الخيول.

أكلت كل رقاقات بطاطس الشيبسي الكبيرة والصغيرة، وحشرت إصبعي في زوايا الكيس لأخرج الفتات وأمصه من طرف إصبعي، ثم قلبت الكيس ولعقته كله من الداخل. توقف الرجال عن الصياح. سادت لحظة صمت ثم انفجروا بالصياح مجددًا. صفَّق أحدهم بيديه وفركهما ببعضهما ورقص قليلًا. وصاح: "نعم! سحقًا، هيا!". قال له أبي: "عذرًا، أتمانع؟ أتمانع مراعاة لغتك أمام الصغيرة؟".

ربحوا مالًا وفيرًا وقالوا إن كل ذلك بفضلي. إنني رائعة، نجمة الحظ، أفضل مبعوثةٍ صغيرةٍ رأوها. لكنهم لم يرسلوني مجددًا، لقد ذهب الرجل الذي صاح "نعم! سحقًا، هيا!" بدلًا مني. اغتظت كثيرًا لأني رغبت بكيسٍ آخر من شيبسي "كينجز كريسبس".

سألني أبي:

- ماذا خطبكِ؟ لماذا أنتِ عابسة؟

- لا شيء.

- هل أنتِ جائعة؟ أتريدين بعض اللحم الضأن؟

- لا، لا شيء.

قال الجرسون:

- أعرف ما خطبها. أعرف لماذا هي عابسة. إنها تحاول إيقاف الساعة، هذا ما تريد. تريد أن يتوقف الزمن حتى تبقى هنا ولا تعود للمنزل أبدًا.

قال الرجل الجالس جوار أبي:

- ألسنا جميعًا كذلك!

ضحك بعض الرجال.

جاء الجرسون إليَّ وقال:

- أنا أمازحكِ أيتها الدجاجة الصغيرة، أمازحكِ فقط. انتظري لتعرفي ماذا لديَّ من أجلك.

صعد على كرسيٍّ ليحضر شيئًا من الرف العلويِّ. كنت أستطيع رؤية وجهه المتوتر في المرآة. في البداية، بدا وكأنه سيعطيني ذلك الطائر الصغير ببطنه المستدير الذي يقف على ساقٍ واحدة ويمد منقاره في كأس ثم يرفعه مكررًا ذلك بنفسه، لكن يد الجرسون لم تتوقف عند الطائر، لقد ابتعدت وأمسكت بذلك

الحصان الأبيض. نزل ووضع الحصان الأبـيض في يـدي. أحببتـه كثـيرًا، فقـد كـان نـاعمًا وثقـيلًا ويقف على منصة، ولا يهم إن كان لا يفعل شيئًا من نفسه لأنه كان جميلًا للغاية.

قال الجرسون إن عليَّ التفكير جيدًا في اسمٍ له.

قلت:

- لكن قد يحطمه أحدهم؟

- من قد يفعل هذا؟

- شخصٌ ما.

- مثل من؟

- لا أعرف، ربما إحدى أختيَّ الأكبر سنًا. لكن بغير قصد بالطبع.

- أتعنين "ديرديري" المسكينة؟ "ديرديري" المسكينة إنها لا تستوعب. اسمعي، لِمَ لا تخفيه منها؟ ضعيه في مكانٍ آمن حتى لا تلمسه. وحين تكبرين بما يكفي أراهن أن والدك سيبتاع لكِ حصانًا خاصًا بكِ.

قال أبي:

- هذا صحيح. عندما تتم العاشرة سأبتاع لها مهرًا صغيرًا.

- حقًا يا أبي؟

- ألم أعدك؟

- نعم.

- ماذا الآن؟

بعدها ذهب الجميع للبلدة.

أخذني أبي لفندقٍ كان يسكنه قبل زواجه.

يصل مفرش الترابيزة إلى الأرض والشوك والسكاكين تلمع بشدة. وضع رجلٌ يرتدي زيًّا، وسادةً كبيرة تحتي حتى أصل للترابيزة، ثم وضع منديلٍ كبير تحت ذقني. لكن هذا جعلني أشبه بطفلةٍ رضيعة، لذا قال أبي إنه يمكنني وضع المنديل على حجري بدلًا من ذلك. عندئذٍ قال الرجل ذو الزيّ: "أستميحك عذرًا يا سيدتي". من السخف أن يدعوني مثلما يدعون أمي فأنا لست كذلك. إن أمي في المنزل تهتم بـ"ديرديري" و"جيني" و"براين" والرضيع "لوك"، كما تهتم بالرد على رسائل أبي التليفونية. وهي أيضًا تُعِدُ الغداء.

عندئذٍ أتت جميع النساء يرتدين مريلاتٍ وقبّعاتٍ بيضاء وأخذن يصافحن يد أبي. إحداهن تدعى "لال" ذات وجهٍ متجعدٍ بنيٍّ، وقد صاحت عند رؤية أبي وأعطته قبلةً طويلة وعميقة.

طلب مني أبي ألا أخبر أمي حتى لا تشعر بالغيرة.

أمي أجمل كثيرًا من "لال"، فلا توجد تجاعيد بنية في وجهها.

بدأت "لال" تعبث بمحتويات الترابيزة، فتحركها ثم تعيدها لمكانها مجددًا.

تحدثت مع أبي وسألته:

- أخبرنا إذًا، هل تعتني بك جيدًا؟

هز والدي رأسه نفيًا ببطء وجعل وجهه يبدو حزينًا. ثم سحب كميّ سترته ليريها أن كميّ قميصه بلا أزرار. قالت:

- يا إلهي! هذا بائسٌ بالفعل!

ثم أرخى ربطة عنقه ليريها أن ياقة قميصه بلا أزرار. قالت:

- يا إلهي! هذا عيب! أتعلم ماذا؟ ما كان عليك تركي قط. سأخبرك شيئًا، ما زلت أحتفظ بصندوق الأزرار الخاص بي في الأعلي، في حال أردت الصعود معي وخلع القميص من أجلي.

قال أبي:

- "لال"! أريد تذكيرك أني متزوجٌ الآن.

عندها بدأت "لال" بالضحك والتصفيق بيديها، وقالت له:

- ما زلت العابث نفسه، العابث الخبيث نفسه.

ثم أعطت أبي قبلةً حميميةً عميقةً أخرى.

احتفظت بالحصان بجانبي على الترابيزة وحاولت إيجاد اسمٍ له.

قالت المرأة:

- أطلقي عليه اسم "لال" تيمنًا بي.

لكني لم أرد تسميته تيمنًا بامرأة قبيحة، لكني لم أرد أن أكون وقحةً أيضًا. لذا قلت:

- لا يمكن أن أسميه "لال"، فهو اسم فتاة، بينما هذا الحصان ذكر.

لم أترك الحصان قط. بقينا لاحتساء المزيد من الخمر، ثم عدنا إلى بار "ميو" ولم أدخل حتى الحمام. قدنا السيارة إلى المنزل عبر الطريق المتعرج حيث يريني أبي دومًا أنوار العاصمة "دبلن" إذا نظرت لأسفل، والسماء إذا نظرت لأعلى.

جلست في الكرسي الأمامي ممسكةً بحصاني. في كل مرة أنزلق من على الكرسي ينزلق الحصان مني أيضًا، وذات مرة اندفعت للأمام واصطدم رأسي بالتابلوه، حيث يحتفظ أبي بحلوى النعناع. اصطدم رأس الحصان أيضًا. أوقف أبي السيارة وفرك جبهتي، ثم فعل المثل مع جبهة الحصان حتى تحسَّن كلانا.

سألني أبي إن كنت أريد حبة نعناعٍ كي أتوقف عن البكاء، لكني رفضت، لأنه حتى وإن بدت الحبة جميلة فهي دومًا تلسع بمجرد وضعها في الفم.

سألت أبي:

- لِمَ تأكل النعناع اللاسع يا أبي؟

- لأنها تزيل رائحة الشراب.

- لِمَ تريد إزالة رائحة الشراب؟

- لأن الشرطي الشجاع يكرهها.

أشار أبي عاليًا نحو القمر البدر وقال:

- انظري! أترينه؟

- أرى ماذا يا أبي؟ القمر البدر؟

- لا. ليس القمر، بل الرجل، الرجل الذي على القمر. إنه في الأعلى هناك، انظري! إنه يتجول.

- ما اسمه يا أبي؟

- لا أحد يعرف. قد لا يملك واحدًا على الإطلاق. لكنه لا يهتم. إنه يتمتع بنزهةٍ لطيفةٍ حول القمر.

- لا أراه! لا أراه! لا أراه!

- هذا لأنك لا تنظرين بتمعن. اهدأى واتبعي إصبعي. أترين...؟

اتبعت إصبع أبي بعيني. تتبعته ببطء من المفصل حتى الطرف. رأيت طرف إصبعه يلمس القمر.

***

قالت أمي:

- هل استمتعتِ بوقتكِ؟ وماذا فعلتِ؟

أجبتها:

- شربت قليلًا من البيرة، وذهبنا إلى الفندق، ورأينا امرأة تدعى "لال". لقد أعطيت أبي قبلةً طويلة وطلبت منه أن يخلع قميصه في الأعلى. وانظري ماذا

أعطاني صاحب بار "ميو" لأني ذهبت إلى وكيل المراهنات بنفسي وعبرت الشارع الكبير. انظري إلى حصاني. لقد صدم رأسه حين انزلقنا من الكرسي الأمامي للسيارة. لكنه أفضل حالًا الآن لأن أبي فرك جبهتينا. ورأينا الرجل الذي يسير على القمر. و...

قاطعتني أمي صائحة:

- ماذا؟!

قال أبي:

- إنها ثرثارةٌ كبيرة تختلق القصص.

قلت معترضةً:

- لا، لستُ كذلك.

عارضني أبي:

- بل أنتِ كذلك. دومًا تختلقين القصص. حتى إنكِ قلتِ إنكِ ضعتِ في السباق.

- لم أفعل، أنا لم أضع.

- أنتِ ثرثارةٌ كبيرة تختلق القصص. طفلة ثرثارة تختلق القصص. لست رفيقتي بعد الآن. ستبقين في المنزل مع أمكِ منذ الآن.

بدأت أبكي وأقول: "بل أنا رفيقتك! أنا رفيقتك!"، والدموع تنهمر من عيني. فقال إنه يمزح فقط، لكن الأوان كان قد فات، فقد قالها بالفعل، لقد قالها بالفعل، قال إنني لم أعد رفيقته.

في البداية نادوها "تيل.. تايل.. تاتلر"، ثم "تيل.. تايل.. تاتي"، ثم تحوَّل اللقب تلقائيًّا إلى "تاتي".

1966



لا يُعنِّفني أبي إلا إذا أسأت التصرف، لكن حين يقـوم بهـذا، أشـعر برغبـةٍ في البكـاء، عـلى الرغم من أنه لا يضربني.. إنه يتظاهر بذلك فقط.

يضع يده على يدي ويضرب نفسه بدلًا مني. أعرف من تعبيرات وجهه أنـه يمـزح، لكننـي أشعر برغبةٍ في البكاء على أي حال. حين تضربني أمي، أبكي فقط إن كانـت الـضربة قويـة، أو إذا هددتني بإخبار أبي. لكنها تنسى إخباره معظم الوقت، فحين يعـود أبي للمنـزل تكـون إمَّـا مشغولةً بمشاهدة التليفزيون أو نائمة.

إن أساء "براين" التصرف أكثر من اللازم، تقول أمي لأبي. ربما تقول له: "انتظر لتعرف ماذا فعل ذلك الولد"، ثم تخبره بما حدث. لكن أحيانًا يقول أبي إنه لا يصدقها. ويقـول إنـه يعـرف أن "براين" ما كان ليسيء التصرف هكذا قط، فهو ولدٌ مطيع. هذا ليس عدلًا، فكأنه يقـول إن أمي تكذب.

إن أساء "براين" التصرف حقًا كان يلقي باللوم على "مينتي". "مينتي" هو صديقه الخيـالي الذي يسكن الجراج. "براين" يلومه على كل تـصرفاته الـسيئة، مثـل مجفـف الـشعر المعطـل، والسروال الداخلي الممزق، والخربشات على كتاب الرياضيات الخاص بي، وبقع الطـلاء الأبـيض المتناثرة على خزانة أدوات المائدة، والبول في دلو الفحم وفي حذاء أمي ذي الكعب العالي.

عندما يلوم "براين" "مينتي" يقول أبي: "انتظر حتى أضع يدي عـلى "مينتـي" ذاك. سـوف أكسر رقبته".

هذا ليس عدلًا، لأن لا أحد آخر لديه صديقٌ مثل "مينتي" ليلقي عليه باللوم.

ذات مرةٍ غضب أبي. كان واضحًا أنه لا يمزح. عندها جعل الجميع يبكون.

ذلك اليوم ابتعدتُ كثيرًا حتى مدينة "كروملين".

***

ابتعدتُ كثيرًا حتى مدينة "كروملين". ذلك اليوم كان طفل الجيران البدين محشورًا في عربة الأطفال، وأخته الكبرى "ماجيلا كورتيس". حملت أمي أخي "لوكي" ورفعته فوق سور الحديقة لكي تتمكن السيدة "كورتيس" من رؤية سنته الجديدة. كانت الاثنتان تضغطان على لثته بأطراف أصابعهما الصغيرة. ظللتُ أقول لهما إنني أشعر بالملل، لذا في النهاية قالتا لي إنه يمكنني السير بعربة الطفل حتى زاوية الشارع. كانتا منشغلتين تمامًا بالحديث، بينما شمس الشتاء ساطعة. قالتا إنه يمكنني تولي الأمر لأني الأكبر. ثم قالت "جيني" إنها ترغب في الذهاب أيضًا. على الرغم من أن ذلك سيجعلها الأكبر بيننا، لأنها تكبرني بعامٍ وعشرة أشهرٍ وأسبوع. أصرت أمي على أني سأكون المسؤولة، لأن الفكرة خطرت لي أولًا مما جعل "جيني" تغضب كثيرًا.

وقتها استمتعتُ كثيرًا بلعب دور الأم وبالغتُ في الاهتمام بالطفل، فجعلته ينام على ظهره ثم أجلسته مجددًا. وضعت السكَّاتة في فمه وأخرجتها ثانيةً. صحت في "جيني" و"ماجيلا كورتيس" قائلة: "تعاليا وتوقفا عن التباطؤ، أتسمعاني؟ ليس لديَّ اليوم بأكمله!".

عندما وصلنا لزاوية الشارع وجدنا زاويةً أخرى وأخرى. لذا ظللتُ أدفع عربة الطفل. مررت بالمحلات البعيدة والمحجر القديم، وصف الأكواخ القديمة، ومطعم "دينو" للسمك والبطاطس، وبار "الغوَّاصة"، وبالمدرسة القديمة المبنية بالطوب الأحمر، والمدرسة البنية، التي ذهبتُ إليها في الماضي، كما مررنا بالكنيسة المبنية من الطوب اللامع، حيث كانت "ماجيلا كورتيس" صديقة لزوجة عمها الإنجليزية التي لم تعد تذكر اسمها. بعد ذلك وصلنا إلى "كروملين".

قالت "ماجيلا":

- هل أخبركما بشيء مذهل؟

- ماذا؟

- تعيش جدتي هنا.

- غير معقول! أين بالضبط؟

- في آخر ذلك الشارع ثم شارعٍ آخر ونجد منزل جدتي هناك بالضبط.

قلت:

- أعرف ماذا نفعل! لمَ لا نذهب لزيارتها؟

أحببتُ جدة "ماجيلا كورتيس" كثيراً لأنها كانت جدةً صغيرةً ومرحة. تشبه الفتيات الصغيرات بسبب تصرفاتها المضحكة، لولا وجهها العجوز. لكن أفضل ما في الجدة الصغيرة هو أنها تحمل دومًا الحلوى في جيبها.

استغرقنا وقتًا طويلًا لنصل إلى بيت الجدة الصغيرة، لأن الطرق جميعًا اختلطت علينا بسبب تشابهها.

ظللنا نسير ونسير وظللتُ أتكلم وأتكلم كأنني أمي، فتحدثت عن تحضير العشاء وطلبت منهما أن تحسنا التصرف وألا تحرجانني أثناء الزيارة. استغرقت الجدة وقتًا طويلًا حتى تفتح الباب. ظلت تختلس النظر من فتحة البريد، ثم سألت: "من هناك؟ من هناك؟ أنا لن أفتح إلا إذا أخبرتني اسمك".

على أي حال، هي لم تسمعنا وجميعنا نصرخ بأسمائنا.

لكن بعد وهلة أدخلتنا جميعًا بأي حال.

أعددت لنا الشاي في أكوابٍ كبيرةٍ مخططة، وحبّات السكر اللامعة تغوص فيها. أعطتنا حلوى القرفة من جيب مريلتها. ثم أعدت ساندويتشات الزبد بالليمون. أولًا وضعت الزبد على الخبز، ثم وضعت الزبد بالليمون وسط الخبز.

ثانيًا ضغطت نصفي الخبز معًا. برزت الزبد بالليمون من الجوانب، ولعقت الجدة الصغيرة أصابعها كلها.

عندما حان وقت الرحيل وقفت الجدة الصغيرة على الباب ولوحت لنا مودعة. ظلت تصيح "هيا! هيا!"، وكأننا قادمات نحوها ولسنا ذاهبات. كان الشارع حالك الظلام بالخارج والجو قارس البرودة، لذا بدت أنفاسنا المتجمدة وكأنها دخَّان سجائر، حتى أنفاس الطفل الرضيع في العربة. عندئذٍ بدأنا بالضحك، فمن المضحك أن تجد طفلًا بدينًا يدخن. لكن الطفل البدين لم يجد الأمر مضحكًا وبدأ بالصراخ والضغط على أعصابي. لذا عندما مررنا ببار "الغوَّاصة" أثناء العودة، دخلتُ إلى الجرسون ذي الشعر المجعد وطلبت منه الاتصال بأبي. لكن أبي لم يكن بالمنزل بعد. لذا اضطر الجرسون إلى وضع عربة الطفل على سقف سيارته وإعادتنا بنفسه إلى المنزل.

عندما عدنا للمنزل، كان المخاط يسيل من أنف الطفل ويلتصق بخديه. كان حفَّاضه غارقًا تمامًا ومرتخيًا حتى ركبتيه. أمَّا أصابع "جيني"، فكانت ملتصقةً ببعضها ومُنثنية، فبدت يداها أشبه بالمخالب. ظلت تصيح: "إنهما ليستا يديِّ! إنهما ليستا يديِّ!".

اضطرت أمي إلى تغطيتهما بالقفَّازات ووضعهما تحت السترة وفركهما مرارًا وتكرارًا حتى نسيت أصابع "جيني" أنها متجمدة وبدأت تتذكَّر مجددًا أنهم ينتميان ليدي "جيني".

عنفتني السيدة "كورتيس" وقالت أمي:

- أنا في غاية الأسف يا سيدة "كورتيس". سأقتلها، سأفعل حقًا.

لكن السيدة "كورتيس" ظلت تعنفني وبعد فترة قالت لها أمي:

- إنها ليست كبيرة إلى هذا الحد كما تعلمين. إنها فقط في السادسة من عمرها. تحدثينها وكأنها بالغة. أعني أن علينا أن نكون واقعيتين يا سيدة "كورتيس". حين تفكرين بالأمر تجدين أن الناضجة الفعلية هنا هي أمك.

عندئذٍ بدأت "ماجيلا" بالصياح واتهمتني قائلة:

- لقد أجبرتني على الذهاب، لقد أجبرتني. وكانت تسخر من جدتي ومن أخي الصغير أيضًا. كانت تدعوه بالبدين كل دقيقة وتحاول جذب خديه عن وجهه. لقد أطلقت عليه اسم "فاتسو".

عندها عادت أمي تعتذر:

- أنا في غاية الأسف يا سيدة "كورتيس".

عندما عاد أبي للمنزل وعرف ما حدث، أيقظني من النوم ليعنفني.

وقف عند الباب ممسكًا بشريحة لحم نيئ. كانت هناك قطرات دمٍ تسيل من قطعة اللحم لتغرق حذاء أبي والأرض من حوله. قال لي:

- أتعلمين أن الشرطة كانت تبحث عنكِ؟ أتعرفين ذلك.

- كلَّا يا أبي. أيمكن أن تخبرني غدًا لأنني متعبةٌ جدًا؟

- متعبة تقولين؟ حقًا؟ حسنًا، أترين شريحة اللحم تلك؟ أترينها؟

تحرك وهو يلوح بها في الغرفة كلها.

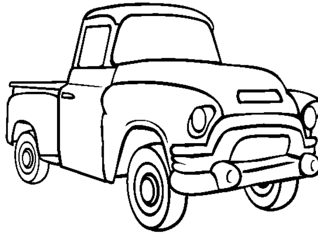
- نعم يا أبي.

- إن كررتِ تلك الفعلة، سأضربك ضربًا مبرحًا على مؤخرتك حتى أجعلها تشبه شريحة اللحم تلك.

عجزت عن التوقف عن البكاء. أردت قول شيئًا، لكن البكاء منع صوتي من الخروج من حلقي. أردت أن أقول له: "هذه وقاحة، يجب ألا تقول كلمة فظة مثل "مؤخرة". عليك أن تقول "ردفًا" بدلًا عنها".

عندئذٍ بدأ الجميع بالبكاء، لأننا لم نرَ أبي بهذا الغضب من قبل، ولم نسمعه يـصرخ هكـذا إلا عندما يصرخ في أمي في الغرفة الأخرى.

لكنه لم يضربني.



1967



جاءت الخالة "ويني" وصعدت السُلَّم مرتديةً ذلك الشبشب القذر.

كلما خطت يصدر شبشبها صوتًا يشبه "طق.. طق.. طق"، هذا لأن أرضيته ترتطم بكعبها. لذا حين تصعد السلم وهي تتحدث، نسمعها هكذا: "طـق طـق... طـق طـق... تلـك الـسلالم، وإلا.. طق طق.. قلت لكم.. الآن.. فورًا!".

يتقاطع صوت الطقطقة مع كلامها فلا نفهم شيئًا.

أحيانًا قد تلكزنا في أذرعنا. ترفع يديها وتصرخ قائلة: "سـأقطع رؤوسـكم، سأسـلخها. أيهـا الأوغاد، سأصلبكم جميعًا".

لكن كل ما تفعله حقًا هو لكزة في الذراع أو ضربـة بقماشـة تجفيـف الـصحون لمـن يمـر بجانبها.

لدى زوج الخالة "ويني" شارب. يقول أبي إنه فأرٌ صغير فوق شفتيه، وهذا يجعلك تخـشى من أن يطلب منك قبلة قبل النوم فيعضك الفأر. يقـول زوج الخالـة "وينـي" إن لـون شـعري غريب لأني حين كنت صغيرة تركتني أمي بالخارج طوال الليل تحت المطر فصدأ شـعري. قـال أيضًا أن نمش وجهي هو آثار هذا الصدأ، لذا لا يزول مهما غسلته.

حاولت كتابة خطابٍ لأمي أخبرها أني أكرهها لأنها تركتني تحت المطر وجعلتني أصدأ. لكني لم أعرف كيف أكتب خطابًا، لذا رسمت صورة أمي بعينين بهما حَوَل، ونقط متناثرة على وجهها بالكامل وبراز يسيل على ساقيها.

بعد ذلك جعلني زوج الخالة "ويني" أقرأ الجريدة.

ثم يقول لأبناء خالتي الأكبر سنًا: "ما رأيكم بهذا؟ هه؟ هه؟ كيف تدافعون عن أنفسكم الآن؟ إنها ما زالت في الصف الأول وتستطيع القراءة. انظروا إلى أنفسكم أيها الحمقى البدناء عديمي الفائدة.

"بيتي" هي إحدى خالاتي أيضًا. لديها عكاز تعلقه على مسمارٍ خلف باب المطبخ. تنزله وتلوِّح به قليلًا فيصدر صوتًا "ووووك".

لديها شجرة تفاحٍ في حديقتها الخلفية وفتافيت خبز أمام بابها الخلفي من أجل الطيور. تقول الخالة "بيتي" إنه لا يجدر بنا تناول أي شيء وقع على الأرض حتى لا نمرض، وربما نموت. لكن فتافيت الخبز لا تصيبك بالمرض ولا تجعلك تموت. زوج الخالة "بيتي" لا يقول أبدًا إني صدئة. يحضر الشوكولاتة يوم الجمعة ويجلب لي بطاطس شيبسي في السرير، وأحيانًا يقطع لي شريحة جبنٍ من القالب الخاص به الذي لا يسمح لأحد بالأكل منه سواه وسواي.

تُنزل الخالة "بيتي" عكازها وتقول: "هل أضرب هؤلاء الأوغاد على سيقانهم من الخلف؟". لم أعرف ماذا أقول. أريد حقًا أن أعرف كيف يكون صوت العُكَّاز حين يضرب الساق من الخلف بدلًا من الهواء فقط، لكنني أظن أن هذا سيكون مؤلمًا جدًا.

ثم هناك أيضًا الخالة "جون". الخالة "جون" تظن أن "تاتي" اسمٌ سخيف، لذا تناديني بـ"كارولين".

الخالة "جون" لا تضربنا، لكنها ترسلنا لغرفنا. فيما عدا أنها ليست غرفنا؛ لأنها في منزلها هي. بنات خالتي الكبار جميعهن في المدرسة، والأخرى ذات الروج الزهري وخصلة الشعر النافرة في عملها. مما يعني أن الغرفة لي وحدي الآن.

يمكنني تصفح مجلاتهن والعبث بأغراضهن. يمكنني فتح علبة أدوات التجميل والنظر إلى أحمر الشفاه وشبكات الشعر الخاصة بهن وبكرات الشعر الزرقاء والزهرية، كل ذلك محفوظٌ في العلبة. يمكنني الوقوف على السرير وقراءة الأسماء الغريبة للناس الموجودة على ملصقات الحائط. أتساءل لماذا أسماء الفتيان كلها ثنائية مثل "جين بيتني" و"هيرمان هيرميت"، بينما أسماء الفتيات جميعها أحادية مثل "لولو" و"سيلا" وتلك السمراء "ميلي".

الخالة "جون" هي الأكثر صرامة مع أنها لا تسب أو تضرب. إنها تغضب إذا تمتمنا أو ضربنا على البيانو أو لطخنا الأثاث بأصابعنا أو نسينا شد السيفون. إن أرسلت أحدنا لمحلٍ ما وأحضر بسكويت الشوكولاتة بدلًا من بسكويت "ماري" سادة، تعيده للمحل مجددًا. لا يهم إن رجاها أو بدأ بالبكاء أو تظاهر بالمرض، سوف تعيده لتبديل البسكويت مهما حصل.

لكن أكثر ما تكرهه الخالة "جون" حقًا هو الكذب. لذا أنا أكثر من يقع في المشكلات معها.

قالت لي ذات مرة: "لديَّ فكرة، سأضع الخردل في فمك إن كذبتِ عليَّ مرةً أخرى".

لكن هذا لا يهم لأن أبي وضع الخردل على إبهامي ذات مرة كي أتوقف عن مصه لأن هذا سيضعف أسناني. لم أدخل لتناول الشاي مع أمي، بل جلست أمام الباب أشاهد السيد "كورتيس" يجز العشب. شاهدت العشب يتطاير من بين الشفرات الملتوية، ومن خلف آلة الجز يسير السيد "كورتيس" ببطء مرتديًا حذاءه طويل الرقبة القوي، كما رأيت مرفقيه العاريين السمينين يبتعدان ثم يرتدان إليه مجددًا. وضعت رأسي على وسادتي الناعمة الخاصة، ووضعت فمي على إبهامي وبدأت أمصه. شعرت عيناي بالنعاس وأنا أنظر لفتات العشب

الأخضر وزهور الأقحوان، بينما أسمع في رأسي صوت آلة جز العشب التي يستعملها السيد "كورتيس".

لهذا لا يهمني الخردل، فلقد جعل مذاق إصبعي مثل قطعة اللحم. وهكذا رحت في النوم سريعًا دون أن أشعر.

أحيانًا لا تكون غلطتي عندما أكذب. أحيانًا بنات خالتي يجعلنني أكذب عندما نستلقي جميعًا على السرير في الظلام ويقلن:

- أخبرينا عن شيء ممتع حدث خلال هذا الأسبوع.

- مثل ماذا؟

- أي شيء، مثلًا عندما كنتِ مع أبيكِ بالخارج.

- لم يحدث شيء.

- لا أهمية لكِ إذًا. نامي فلا نفع منكِ مطلقًا.

حينها كنت أشعر بالوحدة.. حين أستلقي في الظلام دون أقارب أتحدث إليهم وهذا مخيف، لأن أفضل ما في البقاء مع الأقرباء هو الحديث في الظلام حتى نذهب في النوم دون أن نشعر. بدلًا من البقاء مستيقظة في بيتي أستمع إلى "ديرديري" تجز على أسنانها، و"براين" يمص إبهامه، و"جيني" تصلي قبل النوم بصوتٍ أشبه بالصفير، ثم تذهب في النوم بعد أن تقول "آمين". أو أستمع لأصوات خارج الغرفة مثل صوت التليفزيون، أو صوت سيَّارة أبي أثناء عبورها البوَّابة، أو صوت أمي وأبي وهما يتحدثان، وأحيانًا صوت صمتهما أيضًا.

أستمع وأستمع.

قلت لقريباتي إنني أحاول التذكر حقًا، أحاول تذكُّر شيء مثير حدث خلال هذا الأسبوع. أقسم أني أفعل.

لكن لم تجبني إحداهن. لقد ذهبن في النوم.

وفجـأة تـذكرت! تـذكرتُ بيتًـا مـضحكًا مـصنوعًا مـن الخـشب. رأيتـه في بلـدةٍ تـدعى "ليكسليب" عندما ذهبت مع أبي. كانت سلالمه خشبية، وهناك ما يشبه المنصة تحيط بالمنزل من الأمام، قال أبي إنها الفرندة.

- رأيت ذلك المنزل.

- أي نوعٍ من المنازل هو؟

- منزل رعاة بقر.

- ثم...؟

ليس ممتعًا إخبارهن عن المنزل فقط. عليَّ أن أختلـق قـصة للمنـزل، لـذا أخـذت أتخيَّـلُ المنزل، وبابه الذي انفتح فجأة، ليخرج إلى الفرندة رجلٌ متشحٌ بالسواد.

- لقد قابلت "الفيرجيني" "The Virginian".

- "الفيرجيني"؟! من المسلسل التليفزيوني؟ مستحيل! كيف كان؟

- إن أخبرتكم هل ستقلن السر؟

- لا، لا.. نقسم أننا لن نفعل. نقسم بالكتاب المقدس على ذلك.

- أخبري الخالة "جون" عن قصة "الفيرجيني".

- أي قصة؟

- تلك التي أخبرتنا بها ليلة أمس قبل النوم.

- لم أفعل.

- بلى فعلتِ.

- حسنًا، لا أذكر.

- بل تذكرين. تلك القصة عن "ترامبوس" و"بيتسي"، وما قال "ترامبوس" لأبيكِ. هيا، قولي.

اندفعت إحدى قريباتي في النهاية تقول:

- حسنًا أنا سأروي.

لقد خرَّبت القصة تمامًا، تخطت أفضل الأجزاء، وروت بسرعة جدًا، وخلطت الأجزاء ببعضها، ثم اندفعت ضاحكة مع أنها لم تعد مضحكة. لذا اضطررت لتولي أمر القصة وسردها بنفسي. احمر وجهي أثناء السرد، لأن الجميع كان يضحك، وكل مرة أنظر إلى الخالة "جون" كانت عيناها تبادلانني النظر. عرفت أن عينيها لا تصدقانني.

عندما انتهيت، عبست الخالة "جون" وعنفت قريباتي قائلة:

- أنتن أسوأ منها لأنكن تشجعنها على ذلك.

قالت قريبتي ذات خصلة الشعر النافرة:

- بالـلـه عليكِ يا أمي! نحن نمرح فقط.

قالت الخالة "جون":

- مرح أو لا، يومًا ما ستوقعها تلك الأكاذيب في مشكلةٍ حقيقية.

قالت قريبتي ذات الخصلة:

- لن تقول المزيد من الأكاذيب. أليس كذلك يا "تاتي"؟

- أوه لا، لن افعل أبدًا. مستحيل، لن أكررها.

لكن في اليوم التالي كذبت مرتين.

الأولى بعدما أمسكت بي الخالة "جون" وأنا أعبر الشارع الكبير وحدي.

قالت لي:

- كان يمكن أن تصدمك سيارة أو تقتلي حتى. ماذا كنت لأقول لأبيكِ لو حدث لكِ هذا؟

- لقد سمح لي بعبور الشارع الكبير الذي بجوار بار "ميو" وحدي.

- ها قد كذبتِ ثانية!

- بأي حال، أنا لم أعبره، بل عبرت الجسر.

- أي جسر؟ لا توجد جسور.

- بل توجد.

كلما أصرت الخالة "جون" على عدم وجود جسور، رأيته بشكل أوضح. به أشجارٌ وأزهار، وطريقٌ خاص به خطوط سوداء وبيضاء، ومقعد أخضر كي يرتاح الناس إذا تعبوا. كنت أرى صندلي يخطو على الخطوط السوداء والبيضاء. وعندما نظرت من جانب الجسر، رأيت شارع "دورسيت" وأسطح الأتوبيسات الطويلة وأسطح السيارات المربعة، جميعها تعبر أسفل الجسر.

قالت الخالة "جون":

- حسنًا! سنسوي هذا الأمر مرةً واحدة وللأبد.

بعدها سحبتني من كُمِّ معطف المطر القصير الخاص بي إلى الشارع كي أريها الجسر.

لم أصدق حين وصلت ولم أجد الجسر.

قالت الخالة "جون":

- والآن ماذا؟ كيف ستدافعين عن نفسك؟

- لا بد أنه...

- أنه ماذا؟

- لا بد أنه انهار أثناء العاصفة.

- أي عاصفة؟ لم تهب أي عاصفة.

- آسفة خالة "جون".

- أحذرك يا آنسة. إنها فرصتك الأخيرة، أتسمعينني؟ إنها فرصتك الأخيرة بالفعل.

الكذبة الثانية قلتها حين أتى مدير أبي الجديد ليأخذني.

قالت الخالة "جون":

- لكني كنت منتظرة أن يأتي والدها بنفسه. أعني لم يخبرني أحدهم بقدومك. أعني أنا لم أرك من قبل قط. أعني...

- لا بأس بذلك يا سيدتي، فالصغيرة تعرفني جيدًا. صحيح عزيزتي؟

سألتني عمتي:

- أهذا صحيح يا "كارولين" أتعرفين ذلك الرجل؟

نظرت إلى وجه مدير أبي الجديد والابتسامة الكبيرة التي تُظهر أسنانه. ثم نظرت إلى الخالة "جون"، وعرفت أنها لم تصدقه.

سألتني مجددًا:

- أنا أسألك هل تعرفينه؟ أجيبيني يا صغيرتي من فضلك.

- لا أعرف. أعني لا أظن. أعني لا.

في البداية كان مدير أبي الجديد لطيفًا للغاية ويبتسم بشدة مظهرًا أسنانه، ويدعو الخالة "جون" بسيدتي، ويمسك بشعري وهو يقول: "أيتها العابثة الصغيرة". ثم سأم من كذبي وبدأ يصيح في وينعتني بالطفلة الوقحة. ثم جاء

دور الخالة "جون" لتغضب. قالت إنها لن تسمح لابنة شقيقها بالذهاب مع شخصٍ لا تعرفـه، وماذا يظن نفسه ليصيح في طفلةٍ صغيرة بتلك الطريقة. وإلى جانب ذلك يـا لجرأتـه بالقـدوم إليها ورائحة الخمر تفوح منه. قد يكون أي شخص، أي شخص. قد يكون "إيان برادي"، سفَّاح الستينات، حتى. ثم أغلقت الباب في وجهه.

- عمتي "جون"؟

- نعم؟

- عمتي "جون"؟

- ماذا؟

- من هو "إيان برادي"؟

- لا عليكِ. لكن إياكِ والذهاب مع الغرباء، حتى ولو كانت امرأة. أتسمعينني؟ أبدًا، أبـدًا. حتى ولو عرضوا عليكِ الحلوى؟ حتى ولو قالوا أنهم يعرفونكِ أو يعرفون أمـكِ أو أبـاكِ. أبـدًا، أبدًا.

- حسنًا يا خالة "جون".

- أنتِ واثقةٌ من أنكِ لا تعرفينه؟

عندما اكتشفت الخالة "جون" أني قلت مزيدًا من الأكاذيب ثارت بشدة حتى إنها كـادت تبكي. قالت إني قد استهلكت جميع فرصي، وإنها لن تقبل بقائي في منزلها بعد ذلك أبدًا لأن...

- هناك شيء واحدٌ فقط لا أقبله أبدًا، وهو...؟

- الكذب يا عمتي "جون".

- الكذب والكذابون. ما مشكلتك بأي حال؟ ما مشكلتك؟

- أنا فقط...

- أنتِ ماذا؟

- أنا فقط لم أرغب في الذهاب إلى المنزل.

- تقصدين لا تريدين الذهاب إلى المدرسة.

- لا، أقسم لكِ.

- كيف تكذبين مباشرةً في وجه الرجل هكذا. يا لوقاحة الأمر وبشاعته. أنتِ في السابعة من عمرك، بالله عليك. حتى إنكِ شاركتِ في أول صلاة خاصة بسر التناول بالفعل. لا أصدق ذلك. أنا فقط... لماذا؟ لماذا تفعلين ذلك؟ لماذا تكذبين باستمرار؟

- لا أعرف. الأكاذيب تتوالى في رأسي من تلقاء نفسها.

- حسنًا، أوقفيها إذًا. فكري قبل أن تتكلمي.

- أعجز عن إيقافها. إنها فقط تأتي إليَّ.

لدى أمي أختان أخريان، لكن الخالة "ويني" والخالة "بيتي" والخالة "جون" هن من أعرفهن بصورةٍ أفضل لأنهن يهتممن بنا. لديها القليل من الإخوة أيضًا. كما أن لديها أخًا سريًّا يقيم في المستشفى. لا يُسمح لي بالتحدث عنه حتى أنضج كفاية لأفهم، عندها ستحدثني أمي عنه. أمَّا الآن، فلا يُسمح لي بالتحدث عنه أمام أبناء خالاتي، خاصة الجدة "بولين".

- لماذا يا أمي؟

- لأننا أخبرنا بعضهم أنه قد مات في الحرب.

- أي حرب؟ أنا لم أرَ أي حروب؟

- كان هذا منذ سنواتٍ مضت قبل ولادتك. فقط لا تتحدثي عنه. هذا كل ما في الأمر.

- لكن لماذا يظنون أنه مات في الحرب.

- لأن أمهاتهم يُردن أن يظنوا ذلك.

- لكن لماذا؟

- الأمر هكذا وحسب.

- أيمكنني معرفة اسمه؟

- لا.

- أرجوكِ يا أمي؟ أريد فقط معرفة اسمه.

- حسنًا إذًا، إنه "ريتشي".

- "ريتشي"؟ خالي "ريتشي"؟

- نعم، "ريتشي"، خالك "ريتشي". إنه أخي "ريتشارد".

لدى أبي إخوةٌ وأخواتٌ أيضًا، لكنه لا يتحدث عنهم. لذا قد أعرف أسماء أبناء عمومتي، لكن لا أعرف شكلهم وكيف يكون اللعب معهم.

الوحيدة التي يتحدث معها هي العمة "سال". إنها أخته الصغيرة. تفوح من منزلها أطيب رائحة.

لا تظن العمة "سال" أن رائحة منزل أبي طيبة، ودومًا تعنفه بشأن ذلك وهي تسد أنفها، فتقول: "يا إلهي! ألا تبتاع منزلًا محترمًا لعائلتك؟ إن حالة هذا المنزل رهيبة. أم أظنك تفضل شراء حصان سباق؟ ستصير أضحوكة بين الجميع، حقًا. تضيع مالك على المراهنات والخمر. أعرف تمامًا ما كنت لأفعله لو كنت زوجتك".

العمة "سال" تعنِّف أبي دومًا، وهو يتركها تعنِّفه ما شاءت.

من الرائع أن أكون بمفردي مع العمة "سال". إنها تتركني أجرب أحذيتها وأشعل سجائرها لها. تجعلني أضع من عطرها. تقول إنه بمجرد أن تحظى بطفلٍ جديد ستجعلني أهتم به.

تقول أمي إن منزل العمة "سال" رائع لأنه لا يوجد به أطفال يعبثون به. تقول إن العمـة "سال" رائعة لأنها تقضي اليوم بأكمله في تجميل نفسها. لكن ما يجعل العمة "سال" رائعة هو أنها كانت مضيفة طيران.

أظافرها طويلة مثـل المـرأة التـي في إعـلان شركـة "أوكـسو" لأدوات المطـبخ. لـديها كنبـة وسجادة بيضاوان على شكل دبٍ قطبي. لديها شـعرٌ أشـقر تـسرحه دائمًـا عـلى شـكل كعكـة، ومشطٌ فضيٌّ طويل ذو نهايةٍ مدببة لتثبيت الكعكة مكانهـا. تملـك سـيارةً صـغيرة تقودهـا إلى المحلات. لديها جيبة قصيرة مصنوعة من جلد الغزال، ومعطفٌ من الفراء يصل حتى كاحليها. زوجها يناديها كثيرًا بـ"حبيبتي" ويقبِّلها على شـفتيها أمـامي. هنـاك تليفـون بلـون الكريمـة في صالة منزلها، ودولاب بلاستيكية في الغرفـة الإضـافية الـذي ينفـتح بـسوستة بـدلًا مـن البـاب العادي. بها فستان زفاف العمَّة "سـال" وزي مـضيفة الطـيران القـديم وزي الكـشافة القـديم أيضًا.

في غرفة الطعام، هنـاك خزانـة زجاجهـا معـتم. أرجلهـا منحنيـة وبـداخلها جهـاز تـشغيل أسطوانات قديم وهناك مكان لتخزين الاسطوانات. كـما يوجـد أيـضًا زجاجـات الخمـر. لـدى زجاجات الشراب جميعًا أسماءٌ جميلة. تقرؤها العمة "سال"، هكذا: "سينزان-أوه بيانـك-أوه"، و"أدفو-كاه"، و"دية-بون-إيه"، و"بيمز نامبر وان".

أمي هي الأصغر في عائلتها، وهي آخر من تزوَّج. لذا جميع الخالات لديهن أبنـاءٌ كبـار في بيوتهن فيما عدا العمة "سال"، حيث لا يوجد لها أبناءٌ على الإطلاق.

لكن.. أي من تلك البيوت ليس به طفل ذو احتياجات خاصة؟

منزلنا فقط به طفلة ذات احتياجات خاصة.

اسمها "ديرديري".

1968



"ديرديري" طفلةٌ ذات احتياجاتٍ خاصة أرسلها لنا اللـه لأنه يحبنا كثيراً ويعرف أننا محل ثقة للعناية به. اختارنا من بين مئات العائلات واستغرقه الأمر دهـورًا ليقـرر ذلـك لأنـه يهـتم كثيراً باختيار من سيرعى أطفاله ذوي الاحتياجات الخاصة جيدًا.

"ديرديري" هي الكبرى. تكبر "جيني" بسنةٍ واحدة، وتكبرني بثلاث سنوات، وتكـبر "بـراين" بأربع سنواتٍ ونصف السنة، وتكبر "لوكي" بسبع سنواتٍ كاملـة. لكـن عـلى الـرغم مـن كونهـا الكبرى لا يمكنها تولى المسؤولية أبدًا، لأنها لا تفهم.

اعتادت "ديرديري" الصراخ لأي سبب. مثلًا عندما تكون جائعة وتريـد الطعـام، فتطعمهـا أمي بملعقتين، واحدة في فمها وأخرى في الطريق إليه. تبكي حين تكون متعبـةً للغايـة أو حـين تريد شيئًا لا يمكنها الحصول عليه. تلقي بألعابها على الأرض وتركل بقدميها في الهواء.

تبكي أيضًا حين تخاف من الأشياء. الأشياء الـسوداء المتحركـة؛ مثـل الرجـل الوطـواط عـلى التليفزيون، والغربان في الحديقة الخلفيـة، ومـن المدينـة حـين تمطـر الـسماء فـترى المظـلات السوداء تتحرك فوق رأسـها، كـما خافـت مـن الراهبـة الطويلـة المتـشحة بالـسواد في محطـة الأتوبيس، حين انحنت فوق عربتها وقالت: "ليبارك اللـه تلك الطفلة الجميلة!".

الآن، صارت تصرخ فقط لأنها تشعر برغبةٍ في يومٍ مليءٍ بالصراخ.

حين يسيل لعاب "ديرديري"، تصاب بطفحٍ جلـدي عـلى ذقنهـا وعنقهـا بالكامـل. عنـدها ندهن البقع بمرهم "ليسر"، فتبدو أشـبه بـأبي حـين يحلـق ذقنـه. لكـن بعـدها يـسيل لعابهـا مجددًا فيزيل المرهم وتظهر تلك البقع ثانية.

يسيل لعابها في خيوطٍ فضية طويلة تفسد ثيابها. الأجزاء العلوية من ستراتها دومًا خشنة، وياقة معطفهـا جامـدة وداكنـة، فتحـات الأزرار متيبـسة لـذا نـضطر لـدفع الأزرار بـشدة كي تدخل.

لا تحب أمي أن ترتدي "ديرديري" مريلة طعام الأطفال بعد الآن، فقد كـبرت كثـيرًا وربمـا يسخر منها الناس. مما يعني أنه على أمي مسح لعابها قبل أن يـسيل مـن فمهـا. حـين تفـتح أمي حقيبتها تخرج مئات المناديل، وحين تفتح معطفها تبرز المناديل من أكمامها. أمي سريعة في استخدام المناديـل، لكـن أحيانًـا لا تكـون بالـسرعة الكافيـة. إن لم تجـد منـديلًا في الوقـت المناسب تمد يدها بسرعة وتمسح اللعاب بأصابعها.

أحيانًا تصاب "ديرديري" بنوباتٍ تجعلها تجري بسرعة كبـيرة في أنحـاء الغرفـة كلهـا. ذات مرة كادت توقعني في نـيران المـدفأة. لم يكـن هنـاك حـاجز أمـام المـدفأة، فقفـزت أمامهـا كي أنقذها من الوقوع فيها. احترقت جيبتي وابيضَّ وجهـي وارتعـش فمـي، أخـذت أصـدر صـوتًا كهذا: "فوفوفوفو فوفوفووفو"، وكأني انتهيت لتوي من الاستحمام.

لكنها غلطتي، لأنني من أزلتُ حاجز المـدفأة، وأنـا مـن ألقـى الـسكر في النـار كي تـشتعل وتصدر صوت "ووووووش" والدخان يرتفع لأعلى عبر المدخنة.

حـين تـصاب "ديرديـري" بإحـدى نوباتهـا يهتـز جـسدها ويتقـافز وتنقلـب عيناها. عندئذٍ أنادي عـلى أمـي، فتقـول: "يـا إلهـي! يـا إلهـي!"، وتـأتي مـسرعة إلى الغرفة وفي يدها ملعقة، ثـم تـضع الملعقـة في فـم "ديرديـري" كي لا تعـض

لسانها. وتضع يدها الأخرى تحت رأس "ديرديـري" حتـى توقفهـا عـن ضربهـا بـالأرض. أخـيرًا تنتظر حتى تهدأ ساقاها وذراعاها عن الحركة.

تهدأ "ديرديري" بعد النوبة، فتلفها أمي ببطانية وتحملها في حجرها. تهمس لهـا: "اهـدأي يا حملي الصغير، اهدئي".

بعدها تأخذ "ديرديري" قيلولتها الصغيرة.

إنها طويلة للغاية بالنسبة لسنها، لكنها لم تعرف كيفية السير حتى علمهـا أبي. ظلـت ترتدي الحفَّاضات حتى كادت تبلغ الخامسة. اضطرت أمي إلى صنع الحفَّاضـات بنفـسها من الفوط التي نشتريها من متجر "أرنوتس"، لأن مؤخرتها كبيرة عـلى حفاضـات الأطفـال الصغار. الجميع يقول إن هذا مؤسفٌ لـ"ديرديري" لأن وجهها جميل. ثم يقولون إن أمي قديسة. لم يقل أحدٌ قط على أبي قديس. على الرغم من أنه الذي سـاعدها عـلى الـتخلص من الحفاضات وعلمها السير ثم علمها الكلام بأن جعلها تحـوِّل الـضوضاء التـي تـصدرها إلى كلماتٍ مفهومة.

يقف عند الحائط البعيد ويقول لها: "أنتِ جاهزة؟".

يميل للأمام واضعًا يديه على فخذيه، ويقول لها" "أنتِ مستعدة؟".

يمد ذراعيه نحوها ويظل يقول: "أنتِ جاهزة؟ أنتِ مستعدة؟ انظري إلى عينـيِّ، فقـط إلى عينيِّ... واحد، اثنان، ثلاثة، وهيا! "ديرديري" هيا!".

وكأنها تسبح في بحرٍ قارس البرودة.. ذراعاها ترفرفـان في الهـواء وقـدماها تتقـدمان أسرع من جسدها، بينما عيناها تدوران سريعًا في محجريهما وهي تتنفس بشدة وخوف.

بكــت أمــي عنــدما ســارت أول مــرة دون ســقوط. ربــت أبي عــلى رأس "ديرديري" قائلًا: "أحسنتِ يا فتاتي المطيعة، فتـاتي المطيعـة الـشجاعة". كانـت

عيناه حزينتين ومبللتين قليلًا بالدموع في حين يجب أن تكونا سعيدتين وجافتين. "ها هي فتاتي المطيعة، فتاتي المطيعة الشجاعة".

ثم جعلها تعيد الكَرَّة.

عندما كانت "ديرديري" تسمع صوت سيارة أبي كانت تزحف إلى مكانها الأكثر سرية خلف الكنبة، لكنه دومًا كان يجدها ويجعلها تتدرب وتواصل التدريب. إلى أن أتقنت الأمر ذات يوم.

أول كلمة فظة قالتها كانت: "تبًا لك". لم يعلِّمها أبي تلك الكلمة عن عمد، لكنها سمعتها من مكانٍ ما بنفسها. لم تتقن نطقها تمامًا، لكن من السهل فهم ما تعني حين تجمع الأصوات معًا وترى وجهها العابس حين تنطقها.

إن قال أحدنا كلمةٌ فظة يعنفنا أبي. يسألنا: "من أين تعلمتم تلك الكلمة القذرة؟"، عندها علينا قول: "لا نعرف يا أبي"، حتى ولو كنا قد سمعناها منه في السيَّارة. لكن حين قالت "ديرديري" تلك الكلمة الفظة لم يعنفها أبي، بل احتضنها وأرجحها عاليًا نحو السقف.

***

تلك المرأة التي ترتدي زي التمريض تأتي من أجل محادثة صغيرة.

دومًا تقول لأمي:

- أتيت من أجل محادثةٍ صغيرة، محادثة عن "ديرديري" الصغيرة المسكينة.

تشرب ثلاثة أكواب شاي، لكنها تأخذ قضمةً صغيرة من بسكويت الليمون. ثم تبدأ في الحديث عن مدرسةٍ خاصةٍ لـ"ديرديري".

تقول أمي:

- اعذريني للحظة، هل تتحدثين عن مؤسسةٍ خاصة؟

- لا، لا، بالطبع لا.

- بلى تفعلين. هل تطلبين مني إرسال ابنتي إلى مؤسسةٍ خاصة؟!

- أوه لا، الأمر ليس هكذا حقًا. إنها مدرسة مناسبة تهتم بالأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. إنها أشبه بمنزلٍ تام. به غرف نومٍ جميلة و...

قاطعتها أمي:

- على جثتي!

استمرت المرأة في الحديث بصوتٍ خفيض وكأنها تقول سرًا كبيرًا لأمي:

- حاولي تفهُّم الأمر. عليكِ التفكير في أطفالك الآخرين، فكري في الضغط الواقع عليهم. أعني، أهذا عدل؟ لأنه - كما تعرفين - كلما كبرت في السن صعب الأمر.

كررت أمي:

- على جثتي!

عندها فتحت المرأة حقيبتها وأخرجت كتيبًا وقالت:

- حسنًا، على الأقل اقرئي ذلك الكتيب. ناقشي الأمر مع زوجك وأعلميني بقرارك.

- لستُ مضطرة لمناقشة الأمر مع زوجي. أعلم شعوره حيال الأمر بالفعل.

- لكن كيف...؟

- لا تفكري للحظةٍ واحدة أنك أول من يقترح إرسالها بعيدًا!

غادرت تاركةً الكتيب والبسكويت.

ألقت أمي بالكتيب والبسكويت في سلة القمامة.

وجدت أمي شيئًا آخر تقرؤه بدلًا من كتيب المرضة. شيئًا في إحدى مجلاتها اللامعة. مزقت الصفحة ووضعتها في درج المطبخ. استمرت بإخراجها والنظر إليها. إنها تحفظها عن ظهر قلب. إنها عن إدخال الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة إلى مدارسٍ عادية مع أطفالٍ عاديين وإحتمال تقليدهم لهم فيتوقفوا عن كونهم ذوي احتياجات خاصة. هناك صورة في أعلى الصفحة عن أمٍ تحمل طفلًا ذا احتياجات خاصة في حجرها. تقول أمي: "إن الأمر منطقي حين نفكر به. أعني هل كنا نصدق أننا سنرى اليوم الذي تسير فيه وتكاد ترتدي ثيابها بنفسها؟".

تقول ذلك لكل من يدخل المطبخ. تصنع لهم أكواب الشاي وتريهم الصفحة التي تحوي الصورة. تسألهم ماذا يظنون، وتسعد كثيرًا حين يقولون: "نعم، إنها فكرةٌ جيدة".

إلى أن سألت السيدة "روجرز" من الجهة المقابلة من الشارع.

قالت السيدة "روجرز":

- لا، لا. ستضيعين وقتك بالأمر.

ردت أمي:

- أرجو المعذرة سيدة "روجرز"، لست واثقة من أني أفهم ما تعنين.

- بدايةً هذا لن يعالجها، صحيح؟ ثم أي مدرسة تلك التي ستقبل بها؟ لنواجه الأمر، غالبًا سيعترض الآباء على هذا. أعني انظري إلى الطفل الذي في الصورة، حالته تختلف عن "ديرديري"، صحيح؟ إنه مصاب بمتلازمة "داون"، أي أن لديه تغيراتٍ ذهنيةٍ وجسدية، لكن مثله يستوعب الأمور سريعًا جدًا. إنهم ظرفاء كالقرود الصغيرة. وفقط لأنه يربط حذاءه ويصنع لنفسه ساندويتش زبد، لا يعني بالضرورة أن ابنتك "ديرديري" ستفعل مثله.

قالت أمي:

- هذا أغبى ما سمعته في حياتي.

عندها قالت السيدة "روجرز":

- عذرًا، أنتِ من سألتني رأيي.

قالت أمي:

- أتمانعين في المغادرة الآن؟

ردت السيدة "روجرز":

- أمانع؟! هذا يسعدني.

حين أخبرت أمي أبي عن الطفل الذي في الصورة، تناول عشاءه وحدق بالأرض. مضغ فمه قطعة اللحم، ثم حرَّك أنفه. وضع شوكته وسكينه في الطبق وأبعده عنه.

أخبرته أمي عمَّا قالته السيدة "روجرز"، وقلدت طريقة حديثها بصوتٍ عالٍ وكيف تتحدث من أنفها وضحك الجميع باستثناء أبي. سألته ألا يظن أن السيدة "روجرز" جاهلة تمامًا؟ ثم سألته إن كان قد سمع بمثل هذا الغباء في حياته؟ سألته إذا كان يظن أن مقال المجلة منطقي؟ كررت السؤال مجددًا.

وقفت عند حوض المطبخ منتظرةً إجابة أبي.

حكَّ أبي أنفه بظهر يده وسكب لنفسه كوب حليب.

***

في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت، رأيت أمي و"ديرديري" تصعدان الأتوبيس بينما كدت أنزل منه. إنهما ترتديان أفضل معاطفهما، أفضلها على الإطلاق.

رفعت حقيبة المدرسة على ظهري وأمسكت القائم وبدأت في النزول. كان وجهي محمرًا للغاية، لأني تظاهرت بعدم رؤيتهما على الرغم من أنهما يقفان إلى جواري، جواري تمامًا، وترتديان أفضل معاطفهما. إنهما هنا بالفعل.

قالت أمي:

- عذرًا يا آنسة، أين تظنين نفسكِ ذاهبة؟

- أهلًا يا أمي. أنا في طريقي إلى المنزل.

لكن أمي قالت إن هذه مشكلة وإنه علي العودة إلى الأتوبيس.

- لكن لماذا؟

- سنذهب لمقابلة المعلمة.

- لكني يا أمي...

- أحتاجك لتهتمي بـ"ديرديري" بينما أتحدث مع المعلمة.

- لكن المعلمة ليست موجودة، لقد انتهى اليوم الدراسي.

- غير صحيح. لا ينتهي صف الكبار حتى الثالثة. بأي حال سأرى رئيسة المعلمين.

- لكن يا أمي...

لم تخبرني أمي لماذا علينا العودة للأتوبيس، لكن بالنظر إلى رغبتها في مقابلة رئيسة المعلمين والمعاطف الجميلة، وما إلى ذلك، خمنت أن للأمر علاقة بخطة أمي الكبرى. خطتها لإرسال "ديرديري" لمدرستي.

نظرت أمي من النافذة. تحرك شفتيها، لكنها لا تصدر صوتًا. وكأنها تتحدث إلى شخصٍ داخل رأسها. حاولت أن أجعل أمي تحدثني بدلًا من ذلك. أخبرتها عن كل ما ستراه عندما تصل للمدرسة. قلت:

- هناك ساحةٌ كبيرة بها مبنى بني طويل مصنوعٌ من الخشب في أحد جوانبها، ولافتة على بابه مكتوبٌ عليها "بواتشياللي". وعلى الجانب الآخر هناك مبنى بالشكل نفسه مكتوبٌ عليه "سايليني". الكلمة الأولى تعني "أولاد"، والثانية تعني "بنات"، هل كنتِ تعرفين ذلك يا أمي؟

واصلت حديثي:

- ستكون البوَّابة مغلقة لذا عليكِ رن الجرس، عندها ربما يخرج شخصٌ ما من الصف السادس ويفتح الباب. أو ربما حتى رئيسة المعلمين بنفسها. لو أنها رئيسة المعلمين، ستجدينها مرتديةً سترةً زهرية اللون وفستان رمادي وصفَّارة فضيّة حول عنقها. هكذا ستعرفينها يا أمي. أتسمعينني يا أمي؟

توقفت أمي عن النظر من النافذة حين اقتربنا من محطة المدرسة. لكنها ما زالت صامتة. إنها منشغلة تمامًا بضبط ملابس "ديرديري"، والمناديل تتناثر كل دقيقة. طوال الرحلة كانت الكلمات الوحيدة التي نطقت بها هي ما قالته للكمسري عندما طلبت تذكرة للراشدين وتذكرتين للأطفال، أو عندما وضعت بعض المناديل في جيوبي وأخبرتني أن أحافظ على ملابس "ديرديري"، بينما تتحدث مع المعلمة.

عندما تقول أمي إنه عليَّ الحفاظ على هندام "ديرديري" هذا يعني أني مسؤولة عن مسح اللعاب.

تتحدث أمي مع رئيسة المعلمين في الساحة. أُمسك أنا بيد "ديرديري" وأقف عند الجدار. عبر الجدار يمكنني سماع صراخ الطلاب الكبار وصوت زحزحة الكراسي على الأرض، يمكنني الشعور بالحائط الخشبي يهتز خلف ظهري. أحيانًا تترك رئيسة المعلمين أمي وتأتي إلى الجدار وتخبِّط عليه بيدها وتأمرهم بالسكوت، فيسود الصمت لدقيقة. لكن ما إن تبتعد نحو أمي حتى يعود الصخب مجددًا.

لا أسمع ما تقوله رئيسة المعلمين، لكن من تعابير وجهها أعرف أنها لا تريد "ديرديري" في مدرستها البنية. وعندما ترفع يدها لتقاطع أمي أعرف أنها لا تريد سماع خطتها الكبرى.

تحاول أمي إخبارها عن الأشياء التي قرأتها في المجلة. حتى إنها تحاول جعل رئيسة المعلمين تأخذ الصفحة لتقرأها بنفسها. تشير إلى صورة الأم الأخرى التي تحمل الطفل ذا الاحتياجات الخاصة على حجرها، لكن رئيسة المعلمين لا تريد الصفحة. ترفع يدها مجدداً، لكن هذه المرة لا تنزلها حتى تطوي أمي الصفحة ثانيةً وتعيدها إلى حقيبتها.

جزءٌ مني كره رئيسة المعلمين لأنها لا تريد قبول "ديرديري"، لكن جزءًا آخر يشعر بالسرور. لأني أعرف أن "ديرديري" لن يمكنها الجلوس على الكرسي الصغير طوال اليوم، ولن يمكنها مسح السبورة السوداء أو حتى تلميع مكتبها. بأي حال سيكون مكتبها متسخًا تمامًا باللعاب، كما أنها قد تصاب بالنوبات. وسأضطر بالطبع للاعتناء بها طوال اليوم، مما يعني أني لن أكون بمفردي.

أحب الذهاب للمدرسة بمفردي في الأتوبيس وإمساك أجرة للعودة إلى المنزل في يدي طوال اليوم. أتفقدها بين الحين والآخر، وأراقب علامات الصدأ التي تتركها على كفي. أحب أن أفتح علبة اللبن الخاصة بي وأتناول الساندويتش، بينما أجلس على معطفي الذي أفرشه على الكرسي في الساحة، أراقب حشود الطلبة تتدافع. أنا سعيدة لأن أمي لم تخرجني من تلك المدرسة حين تم الانتهاء من بناء المدرسة الكبيرة في أول الشارع، على الرغم من أن "جيني" التحقت بها سبتمبر الماضي، وظل الجميع يقول إنه من الأسهل لو التحقت الفتاتان بالمدرسة نفسها. ظلت أمي تقول أني أستطيع البقاء حيث أنا، لأنه من الظلم نقلي من مدرستي البنية الصغيرة التي أحبها كثيراً.

تقول المعلمة إنه حان وقت النوم في مقاعدنا. نشبك أذرعنا تحتنا كالوسادة. عندها يهدأ كل شيء حتى إننا نسمع الأصوات خارج الصف، مثل أصوات

الأتوبيسات، وتدفق المياه في حمَّامات الفتيان وصوت المعلمة حين تنفث الدخان من سجائرها التي تدخنها خفية.

لكن لن يكون هناك أي نوم إذا جاءت "ديرديري" هنا. لأنها قد تبدأ بالصراخ وستسمعها رئيسة المعلمين وتأتي. بعدها قد تقول "ديرديري" كلمتها الفظة "ابتعد، تبًا لك". مع أنها لا تنطقها بطريقةٍ سليمة، لكن رئيسة المعلمين قد تفهمها.

لأن رئيسة المعلمين تعرف كل شيء عن كل شيءٍ. تعرف الأنهار والجبال حول العالم، تعرف أسماء جميع الرجال الذين ماتوا من أجل آيرلندا، وكلمات جميع القصائد في الكتاب. كما تعرف رئيسة المعلمين كيف تعزف على الهارمونيكا وكيف تحيك جوربٍ بإتقان. رئيسة المعلمين تعرف أي شيء وكل شيء. رئيسة المعلمين تعرف.

أردت أن أصيح بأمي: "هيا يا أمي، لا تتحايلي عليها أكثر من ذلك. هيا نعد إلى المنزل".

أردت أن أصيح بأمي: "هيا يا أمي، لندع مدرستي البنية الصغيرة وشأنها. هناك أماكن كافية في مدرسة "جيني" الخضراء. لِمَ لا تسألي هناك وحسب؟".

هكذا أكون دومًا مع "ديرديري"، مشاعري منقسمة.

تارةً أضرب الفتى الكبير عند زاوية الشارع لأنه سخر من أختي الكبيرة. ألكمه وأركله وأهينه قائلة: "أنت معتوه! أنت معتوهٌ كبير! أنت أحمق! أنت أحمقٌ وبدين!".

إن حجمه ضعف حجمي، ويشدني طوال الطريق من شعري. لكني لا أهتم، فأنا لن أدع أحدًا يسخر من أختي الكبرى.

وتارةً أخرى أختبئ في الزقاق كي لا أضطر للذهاب مع "ديرديري" إلى المحل، أو أتظاهر أنها إسبانية في الأتوبيس حين تتحدث بطريقة مضحكة.

أريدها أن تكون شجاعة لأني أحبها كثيراً.

لكني أكرهها لأنها لا تتعلم أي شيء أريه لها.

مثل أن تعلق معطفها أو تربط حذاءها أو تمشط شعرها. مهما علمتها ببطءٍ وصبر لا تتعلم. عندها أفقد أعصابي وأصرخ وأبكي وأضرب بقبضتيِّ على السرير وأنا أصيح بها: "لِمَ لا تتعلمين؟ لِمَ لا تستمعين أبدًا؟ أنتِ تمسكين بالفرشاة بالطريقة الخاطئة، إنها الطريقة الخاطئة. عليكِ تمشيط شعرك للأسفل وليس الأعلى، الأسفل وليس الأعلى".

ثم أعود وأحبها وأرغب في عناقها طوال اليوم وأضفر شعرها في الحديقة.

في طريق عودتنا من المدرسة صعدنا إلى الطابق العلوي في الأتوبيس حتى لا يرى أحد أمي وهي تبكي.

صفَّر الكمسري وهو يصعد الطابق العلوي، لكنه توقف حين رأى أمي تبكي. ثم عاد أدراجه ونزل ثانيةً. بعدها تركنا نغادر دون أن ندفع الأجرة.

كرهتُ أمي لأنها جذبت انتباه الناس لنا، وكرهت حقيبة يدها الغبية وصورة المجلة الغبية بداخلها. كما كرهت وشاح أمي الغبي ووجهها الغبي من تحته وهو غارقٌ بالدموع.

حين نزلنا من الأتوبيس، أمسكت أنا بيد "ديرديري" وتقدمناها في السير حتى لا يعلم أحد أننا مع تلك الأم الغبية.

***

في النهاية، وجدت أمي مدرسةً خاصة لـ"ديرديري"، وهناك أتوبيس مدرسي خاص سيوصلها كل صباح ويعود بها للمنزل الساعة الثالثة.

أول مرة رأت فيها "ديرديري" أتوبيس المدرسة، بدأت بالصراخ. ألقت بنفسها على الأرض وبدأت تركل الهواء. تمسكت بساقي أمي ورفضت تركهما. عندها اضطر سائق الأتوبيس إلى النزول وسحبها بعيدًا عن ساقي أمي ثم وضعها في الأتوبيس. عندئذٍ توقفت عن الصراخ وبدت أشبه بفأرٍ صغيرٍ خائف.

قال "براين":

- أرجوكِ يا أمي، إنها لا تريد الذهاب. أرجوكِ يا أمي.

- عليها ذلك يا حبيبي.

- لكنها لا تريد الذهاب. إنها لا تحب ذلك.

- ستحبه.

- أتعدينني يا أمي؟

- نعم، أعدك.

لا بد أن "براين" صدَّق أمي حين قالت ذلك لأنه توقف عن البكاء.

نظرتُ إلى جميع الأطفال الآخرين من خلال نوافذ الأتوبيس.

بعضهم بدا أشبه بشعب الإسكيمو من كتاب "أطفال حول العالم". وبعضهم بدا أشبه بأشخاصٍ عجائز متعبين ويرغبون فقط في النوم والمزيد من النوم. القليل منهم كان يهز نفسه إلى اليمين ثم إلى اليسار، أو إلى الأمام والخلف.

واحدةٌ فقط ظلت تضرب رأسها في ظهر الكرسي الذي أمامها. كانت هناك قطعةٌ من الإسفنج مربوطة حول جبينها. هناك بقعة دماء على الإسفنج. رأيتُ ولدًا لا يتوقف عن الضحك على الرغم من عدم وجود ما يُضحك حتى بدا أنه سيصاب بالغثيان.

سرت إلى الأتوبيس ولمست وجه "ديرديري" عبر النافذة.

قلت لها:

- آسفة يا "ديدي". أنا حقًا آسفة.

1969



تقول أمي إن الجميع يتجادل وليس فقط هي وأبي.

تقول أمي:

- إن هذا دليلٌ على حبك لشخصٍ ما. فأنت لن تزعج نفسك بالخلاف مع شخصٍ لا تهتم لأمره. أليس كذلك؟

- لا يا أمي.

- لا حرج في هذا.

- نعم يا أمي.

- لكن هذا لا يعني أن تذيعا الخبر أيضًا.

لا تسميه أمي نزاعًا، بل خلافًا بسيطًا.

- لقد كنتِ في خلافٍ بسيطٍ مع "جيني" البارحة، أيعني هذا أنكِ لا تحبينها؟ بالطبع لا. وفي المدرسة تدخلين في خلافاتٍ مع أصدقائك، صحيح؟

- أنا؟ لا.

- لِمَ تضحكين؟ ما المضحك؟

- الأمر فقط هو أني لا أتجادل مطلقًا في المدرسة. هناك أفضل صديقتين لي، إنهما دومًا، دومًا...

- أرأيتِ؟ أراهن أنهما تتصالحان دومًا، صحيح؟ بالطبع تفعلان. حسنًا، هذا مثلي أنا ووالدك. يغضب بعضنا من الآخر، ثم ندخل في خلافٍ بسيط. لكن في النهاية، نتصالح مجددًا لأننا نحب بعضنا بعضًا. إنه الأمر نفسه حقًا، لكن الأشخاص أكبر سنًا وحسب. إنه الأمر نفسه تمامًا. أتفهمين؟

- أفهم يا أمي.

لكني لا أفهم، ليس حقًا.

بعض الأمور البسيطة قد تكون متشابهة، لكن الكثير من الأمور الكبيرة مختلفةٌ تمامًا.

إن تجادلت أفضل صديقتين في صفي قد تغضبان وتتخاصمان. لكن إن فقدتا أعصابهما وتركتا العنان لمشاعرهما فلن تكترثا بمن يراهما أو يسمعهما. ستضرب إحداهما الأخرى في ساحة المدرسة وتجذب شعر إحداهما الأخرى في الفصل. ثم تقولان طنًا من الكلمات الفظة. ربما لا تكون حتى تلك الكلمات الفظة صحيحة، قد تكون شيئًا عن منزلها أو عائلتها، مثل أنها لا تملك سيارة أو تليفونًا. قد تكون عن نحافتها أو بدانتها. أو قد تكون شيئًا مثل: "أنا أكرهك. أتمنى أن يصدمك أتوبيس كبيرة. لا أريد أن أكون صديقتك مرةً أخرى، أيتها الحقيرة كريهة الرائحة ذات الشعر الدهني".

بعد وهلة تتصالح الصديقتان المقربتان مجددًا ولا يتذكر أحدٌ كيف تصالحتا. حتى هما ربما لا تتذكران إن سألتهما. الأمر يحدث من تلقاء نفسه.

إن تشاجرت مع أحد أفراد المنزل مثل أبناء خالاتي أو أخي أو أختي يجعلني أبي أعتذر وأصافح أياديهم. يجعلني أصافحهم على الرغم من أني لا أتحدث إليهم. لا يمكنني النظر إلى الوجه الذي يُفترض بي الاعتذار له، فأنظر إلى اليد التي

أصافحها عوضًا عن ذلك. كم أرغب بعصر تلك اليد حتى تنكسر. أرغب بعضها والتقيؤ عليها. أبي لا يهتم. ما زال يجعلني أصافحهم. ما زال يجعلني أعتذر.

لكن حين يتشاجر أبي وأمي، لا أحد يجعلهما يتصافحان. من المسموح لهما النزاع كما يحلو لهما. من المسموح لهما الاستمرار والاستمرار حتى يكونا مستعدين للتوقف من تلقاء نفسيهما. قد يمضيان صيفًا كاملًا في النزاع نفسه إن رغبا بذلك.

***

يمتلأ المنزل بالنزاع وسط الليل كقطارٍ صاخب.

توقظنا الصيحات والصرخات والسباب والزمجرة.

يخترق النزاع غرفة المعيشة. تطير الأشياء وتتحطم المدفأة. يعلو صوت الضرب والتحطيم والتدمير حتى يهدأ رويدًا رويدًا مما يعني أن النزاع الكبير الأول قد انتهى.

بعدها لا يتحدثان.

ربما يظلا متخاصمين هكذا طيلة أسابيع وشهور حتى يحصلا على النزاع الكبير الثاني. لأن النزاع الثاني الكبير يعني أنهما مستعدان للاستسلام.

إلا إذا وقع حادثٌ ضخم أولًا، مثل وفاة أحد، كوفاة جدتي أو أعز أصدقاء أبي. أو إذا اضطر أحدنا لدخول المستشفى، مثل أن تسوء حالة الربو لدى "جيني"، أو أن يسقط "براين" من السطح، أو إن تناولت أمي حبوب دواء كثيرة بالخطأ.

لكن معظم الوقت تهدأ الأجواء بعد النزاع الكبير الثاني. علينا فقط الانتظار.

استمر بالاعتقاد في وجود رائحة غريبة في المنزل. حين أعود من المدرسة أشم كل ركن، لكن رائحة المنزل تظل كما هي. هذا يثير جنوني، لأنه على الرغم من عجز أنفي عن إيجادها أعرف بوجودها. أشعر بوجودها، إنها رائحة بلا رائحة.

يرسم لي أبي صورة. يستغرقه الأمر بضع ثوان ليرسم. يرسم لي صورة حصان. ثم يقول لي: "خذي. بالكاد يشبه حصان السباق "أركل"، لكنه يفي بالغرض".

أُري حصان أبي لأمي. أريد أن يجعل الحصان أمي تحب أبي مجددًا. تقول أمي: "نعم، إنه حصان جميل. نعم، إن والدك رسَّامٌ بارع".

عندئذ خطرت لي فكرةٌ عظيمة. طلبت من أمي أن ترسم حصانًا أيضًا كي أريه لأبي، ربما بعد أن يرى حصان أمي يحبها مجددًا. لكن حصان أمي يبدو سخيفًا. إنه أشبه بكلب أو سيارة، كل ما فيه يبدو مربعًا ومسطحًا حتى الذيل.

- أمي؟

- ماذا؟

- هذا ليس جيدًا. ألا يمكنك جعله أشبه بحصانٍ حقيقي مثل الذي رسمه أبي؟

عندها ثارت أعصاب أمي وألقت بالقلم الرصاص على الأرض وقالت عني وعن أبي:

- آهٍ منكِ ومن رفيقك، رفيقك اللعين. لقد سئمت منكما. اختفي من أمامي.

- لكن يا أمي أنا فقط...

- أنتِ دومًا فقط، دومًا فقط. تظنين أنكِ في غاية البراعة. تتحدثين إليَّ وكأنني غبية. "جيني" أذكى منكِ مرتين. إنها لا تحلم حتى بالحديث إليَّ بهذا الأسلوب. أنتِ مثل أباكِ، تحتقرانني. توقفي عن التذمر وإلا أعطيتك سببًا تتذمرين بسببه حقًا.

- لكن يا أمي...

- قلت كفى! إلا إن كنتِ تريدين تلقي ضربة مني؟ أتريدين ضربة؟ أهذا ما تريدين؟ صحيح؟ أليس كذلك؟

- كلَّا، شكرًا يا أمي.

- "كلَّا، شكرًا يا أمي". اذهبي بعيدًا عن وجهي، أنتِ تثيرين اشمئزازي. اذهبي، اذهبي!

أجلس في الدور العلـوي مـن الـسرير ذي الـدورين وأصـيح بـأعلى صـوتي. أضرب رأسي في القائم الخشبي، وتخترق صرخاتي السقف. أضرب وأصرخ وأصيح وأضرب، أعـلى وأعـلى كي أعلو فوق صوتيهما ويسمعانني:

"توقفا عن النزاع، توقفا عن النزاع. أنتما تصيبانني بالصداع. أنتما تصيباني بالصداع. توقفـا عن النزاع، توقفا عن النزاع. أوقفا الصداع، أوقفا الصداع. توقفا توقفا.. توقفاااااااااااا".

تقف أمي عند باب الغرفة ووجها مخفي في الظلام. يـأتي أبي بجـوار سريـري. يربـت عـلى رأسي. أهدأ. يقول إنه يمكني مص إبهامي إن أردت. ثم يقول:

- لا بأس، اسمعي. أتسمعين؟

- أسمع ماذا؟

- لقد توقف.

- أيعني هذا أنه ابتعد يا أبي؟

- نعم، لقد أبعدته. وإليكِ هذا الوعد الكبير، لن أدعه يأتي إلى هذا المنزل مجددًا.

- لم يكن خلافًا بسيطًا يا أبي.

- كلا يا صغيرتي الحبيبة، لم يكن.

- ربما تقول أمي أنه خلافٌ بسيط، لكنه ليس كذلك.

- ربما بدأ كخلافٍ بسيط.

- ثم ماذا حدث؟

- تعقَّد واشتد على ما أظن.

خرج أبي وأمي إلى غرفة المعيـشة، وهـدأ كـل شيءٍ مجـددًا. لا أسـمع شـيئًا سـوى دقات الساعة. تدق وتـدق "تيـك تـوك تيـك تـوك"، وصـوت بكـائي المـستمر. أذهـب

في النوم رويدًا رويدًا. يـشبه صـوت بكـائي هـذا الـصوت، "هييييـي هـوووو"، "هيييـي" ثـم "هوووووو"، وكأنني حمار ولستُ فتاة صغيرة.

***

حين يتصالح أبواي مجددًا، يشتري أبي لأمي باقة زهور كبيرة ويأخذها في سيَّارته إلى وسـط البلدة ويعطيها مالًا لشراء ثياب جديدة جميلة. تـسمِّي أمـي هـذا "قـضاء وقتًـا ممتعًـا"، ثـم يعزمها على العشاء في مطعمٍ أنيق، ويتنزه معها في عطلة نهاية الأسـبوع، ويأخـذها لـسباقات الخيول والبارات كي تتباهى بثيابها الجديدة. الجميع سعداء، يضحكون ويضحكون باستمتاع.

بعدها يحنِّثُ أبي بوعده الكبير ويسمح للنزاع بالعودة ثانيةً إلى المنزل.

ويعودا للخصام.. مجددًا.

لا نرى أبي كثيرًا في تلك الفـترة. وحـين نـراه يكـون مختلفًـا، وكأنـه عمـي ولـيس أبي. يـترك الجورنال حين أدخل الغرفة ويسألني عن المدرسـة ومـواظبتي عـلى دراسـتي. يرسـلني لـشراء الجرائد من المحلات. ويعطيني المتبقي من النقود كله بدلًا من إعطائي البعض وحسب.

يرسم لي صورة ويساعدني على إنهاء الواجبات المدرسية. في يوم الأحد يطلب مـن الجميـع أن يجلسوا في السيارة في خلال خمس دقائق. ثم يقول إنه دور "براين" في الجلوس في الكرسي الأمامي. حين يقول ذلك نعلم أن أمي لن تأتي.

- إلى أين نذهب يا أبي؟

- سنقود السيارة في الريف ثم سآخذكم للعشاء في مكانٍ لطيف.

عندها أفكر: "ماذا عن أمي؟".

"جيني" هي الأذكى في صفها. إنها بارعـة في كـل مـا تفعلـه، الحـساب واللغـة الإنجليزية والآيرلندية والهجاء، حتى إنها تحـصل عـلى علامـة ممتـاز في الحياكـة والخياطة. هناك العديـد مـن النجـوم الذهبيـة ملتـصقة جـوار اسـمها في لوحـة

الشرف، تبدو النجوم أشبه بالغوريلّا. إنها بارعة خارج الدراسة أيضًا، تستطيع إعداد عشاءً مناسبًا بالطماطم واللحم ومرق اللحم. إنها تُصلح التليفزيون، وترتب الصحف، كما تلمِّع جميع الأحذية وتعد وجبات الغداء، تقوم أيضًا بجميع الأعمال المنزلية كي تجعل أمي في مزاجٍ جيد مجددًا. إنها تكره ألا تكون الأمور غير مثالية. لذلك تكره يديها لأن الحبوب تصيبها باستمرار. إنها تضيع مصروفها على شراء ضمادات لتغطي الحبوب في النهار. في الليل تخفيها بمادةٍ نفاذة الرائحة تشبه طلاء الأظافر.

لكن أكثر ما تجيده "جيني" هو التحدث دون صوت.

يمكنها تشكيل الكلمات بفمها ويديها، يمكنها أن تأمرك بفعل ما تريد بتحريك حاجبيها وعينيها. يمكنها أن تخرج مفكرتها الصغيرة من جيبها وتكتب ملاحظة غاية في الصغر ثم تشطبها بسرعة جدًا قبل أن يلاحظها أحد.

تضع فمها جوار أذنك وتتحدث إلى عقلك مباشرةً. حين تضع فمها جوار أذنك تزحف قشعريرة على عنقك وجانب جسدك. ثم يهز صوتها عقلك ولا يسمعه سواك.

تسألني بصوتٍ خفيض:

- ماذا عن عشاء أمي؟

أرد عليها بصوتي العادي:

- لا أعرف.

يسمعني أبي في الكرسي الأمامي فيسألني:

- لا تعرفين ماذا يا "تاتي"؟

- لا شيء يا أبي.

تتحرك عينا "جيني" ويتقافز حاجباها صعودًا ونزولًا وكأنها تقول: "اسأليه. هيا، اسأليه. هيا، اسأليه".

- أبي؟

- نعم؟

- أيمكنني أن أسألك شيئًا؟

- بالطبع يمكنك. اسألي ما تشائين.

- حسنًا، ماذا عن...؟ أعني، ماذا كنت سأقول؟ أعني، كيف...؟ إممم، ماذا تـسمى؟ نعـم.. أمي! ماذا عن عشاء أمي؟ ماذا عن أمي؟

- ماذا عنها؟

أمي مختلفة، فنحن نراها طوال الوقت، جميع الأيام. تكون إمَّا في غاية الحزن أو في مـزاجٍ سيئ.

أحيانًا حين تكون حزينة قد تطلب حضنًا مـن "بـراين". يكـون حـضنًا قويًـا يكـاد يـسحق عظامه. يقول لها: "آه آه.. أنتِ تؤلمينني يا أمي". لا تعتذر لإيلامه، بـل تبعـده عنهـا وحـسب. بعدها تعود لمزاجها السيئ.

تبكي وتتحدث لخالاتي على التليفون، تبكي في المطبخ أو وحدها. يشعرني هذا بالأسف على أمي الكبيرة المسكينة، فهي تبكي وحدها في المطبخ أثناء تحضير العـشاء أو غـسل الـصحون أو تنظيم الثياب.

بعد فترةٍ تتوقف عن الحزن والبكاء، لكنها تبقى في مـزاجٍ سـيئ طـوال الوقـت. عنـدها لا أشعر بالأسى عليها، بل بالخوف منها.

هناك رائحة عفنة في غرفة النوم، هناك براز في كل مكان في سريره، بين شعره، على سـاقيه وذراعيه، حتى إن بعضه تحت أظافره. لقد خلع "لوكي" مريلة طعامه مجددًا وأمي تضربه.

كنا في أحد أيام "ديرديري" الصارخة. في وسـط نـزاعٍ طويـلٍ كبـير بينهـا وبـين أبي. يمكننـي سماع الصفعات من كل مكان في المنزل. يمكننـي سـماع صرخـات "لـوكي" الطويلـة. حتـى مـن خلف الكنبة يمكنني سماع كل ذلك.

تصفعه وتصفعه قائلة: "خذ هذا وهذا وهذا أيضًا", تصفعه مجددًا وتقول: "أيهـا الـصغير القذر الحقير". وتصفعه!

لذا ركضت إلى غرفة النوم على الرغم من أن "جيني" رجتنـي ألا أذهـب وحاولـت جـذبي من مرفقي وهي تهمس في أذني: "لا تفعلي يا "تاتي"، لا تفعلي يا "تاتي" لا".

لكني فعلت. ركضت إلى غرفة النوم وأنا أصيح بأمي:

- اتركيه وشأنه. اتركيه وشأنه وإلا أخبرت أبي بما تفعليه.

عندها غضبت أمي بحق. إنها ستضرب من أمامها بلا اكتراث. ستضربني وتسبب لي ندبـةً في وجهي لمدى الحياة إن لم أصمت وأهتم بشؤوني الخاصة. أنا أحذرها ثانيةً، أحذرها مجددًا:

- اتركيه وشأنه، اتركي أخي الصغير وشأنه وإلا سأخبر أبي. سأخبر أبي بما تفعلين.

اضطررت للسكوت لأن صوتي توقف عن العمـل ولأني كنـت خائفـة عـلى حيـاتي في حـال غضبت أمي وبدأت تضربني حقًا بدلًا من "لوك".

لكن أمي لم تقدر على الضرب أكثر، لأنها فجـأة نامـت عـلى جانـب سريـر الطفـل. ظلـت هكذا تبكي وتبكي حتى جلبت لها "جيني" مياهًا بها صابون، وسألتها:

- هل أنظفه يا أمي؟

- كلّا، أنا سأفعل.

نظّفت أمي "لوك" وغسلت سريره. حممته وقبلته ووضعت يدها في شعره المتسخ بالبراز. أعطت الماء لـ"جيني" كي تغيره. أثناء انتظارها لـ"جيني" لتعـود بالمـاء النظيـف ظلـت تعانقـه مرارًا وتكرارًا.

يتحرك مرفق "لوك" في كل مره تعانقه أمي. ترمش عيناه حين تفرك شـعره. ويأخـذ نفـسًا عميقًا.

حين يعود أبي للمنزل يأتي إلى غرفة النوم كي يتمنى لنا ليلة هانئة. ويقول:

- جميعكم هادئون للغاية هذه الليلة. ما خطبكم؟ أحدث شيءٌ ما؟

أرد عليه:

- لا، لا شيء. نحن فقط متعبون يا أبي. هذا هو الأمر.

- حسنًا إذًا. تصبحون على خير.

- تصبح على خير يا أبي.

همست إليّ "جيني" في الظلام:

- "تاتي"؟

- ماذا؟

- أنا سعيدة لأنكِ لم تشِ بأمي، أنا فعلًا سعيدة.

همس "براين" في الظلام:

- "تاتي"، أنا كذلك أيضًا. أنا سعيدٌ حقًا.

أقول أنا:

- إن كررت ذلك سأفعل. أقسم على ذلك. سأخبر أبي أنا بشأنها. سأخبر أبي أنا.

قالت "جيني":

- دومًا تقولين ذلك.

- دومًا أقول ماذا؟

- "أبي أنا"، دومًا تقولين "أبي أنا، أبي أنا". وكأنه أبوكِ وحدك وليس لغيرك.

1970



أشعر بالوحدة حين أنتظر أبي وأمي كي يستسلما ويتـصالحا. أشـعر بالوحـدة لأنـه لا أحـد آخر بالمنزل يرغب في الحديث على الرغم من أنه لا أحد آخر واقعٌ في نزاع. الأمـر لـيس فقـط عدم وجود من أتحدث إليه، بل أيضًا عدم وجود من أسمعه.

تغلق "جيني" الستائر وسط النهار، ثم تذهب إلى السرير وتلعب بدُماها.

أسألها:

- ما خطبك يا "جيني"؟ لِمَ أنتِ في السرير؟

- أنا مريضةٌ للغاية.

- كلَّا، لستِ كذلك.

تحرك شفتيها قائلة:

- بل أنا كذلك. قد أُصاب بنوبة الربو في أي لحظةٍ الآن.

تسند الدمى على وسادتها وتهمس سرًا لها ثم تغيِّر ثيابها. إن حاولتُ الانـضمام لهـا تنـزل تحت الأغطية وتـسحب دُماهـا واحـدةً تلـو أخـرى. تختفـي وجوههـا في الأسـفل: "سـيندي"، "تريسي"، "باش"، "شريمب"، "ليندا"، "بارباريلا".

أسمعهن جميعًا يهمسن الأسرار في الظلام.

تجلس "ديرديري" على حصانها الهزَّاز أمام التليفزيون. لا تصدر صـوتًا سـوى صـوت أزيـز "إيبي.. إيبي" على الرغم من معرفتها لمجموعةٍ كبيرةٍ من الكلمات الآن.

تريد فقط ركوب حصانها الهزَّاز، حتى لو أريتها عملة نـصف الكرونـا التـي أعطـاني إياهـا أبي وأخبرتها أني سآخذها للمحلات وأشتري بها "ميرندا".

تظل تقول: "إيبي.. إيبي" بصوتٍ خفيض تماشيًا مع حركـة الحـصان البطيئـة. إن حاولـت سحبها من فوق الحصان تجعله يتحرك أسرع وأسرع ويعلو صوت "إيبي.. إيبي" أعلى وأعلى.

بعد وهلة تترك الحصان بعينين ناعستين وهي تبحث عن الكنبة. وحين تجدها تنكمش في نفسها وتأخذ قيلولتها.

يجلس "لوكي" في ركن اللعب الخاص بـه والمُحـاط بقـضبان. يحـدِّق في الحـائط أو يمـسك بالقضبان ليقف ببطء ثم يجلس على ركبتيه. يجلس بين الأغطيـة ثـم يـضع الـسكَّاتة في فمـه ويلقي رأسه على وسادته الصفراء التي على شكل حمل.

أمَّا أمي فتريد أن تكون بمفردها. تنعزل في غرفتها وتظل تنتقل من قيلولةٍ إلى أخرى.

إلا إذا كانت ستخرج مع صديقتها "أليس" أو ربما العمة "سال" في إحدى سيارتيهما. لـدى العمة "سال" سيارةٌ حمراء "رينو"، اشتراها لها زوجها بعدما كانت مريـضة في المستـشفى. أمَّـا صديقتها "أليس" فلديها سيَّارة زرقـاء مـن طـراز "فيـات" تعلِّـق عـلى نافـذتها الخلفيـة دميـة شعرها أشعث مربوطة بخيطٍ وتتقافز كالمجانين.

تقول إنها ستخرج للتسوق ولن تتأخر. لكنها قد تتأخر كثيرًا. وعندما تعود للمنـزل تكـون في غاية التعب، وأحيانًا تنسى إحضار المشتروات معها. ثم تغرق في قيلولةٍ أخرى.

وكأن الجميع متعبٌ طوال الوقت.

ماعدا "براين". لكن لعبه عنيفٌ جدًا، دومًا يحطم الأشياء ويوقع أمي في المتاعب مع الجيران. دومًا يحطم الأشياء ويلوم "مينتي".

***

تكتب "جيني" رسالةً لي تقول فيها إن أمي سكرانة.

اضطررت لتضييق عيني بشدة لأن رسالة "جيني" كانت صغيرةً للغاية. تقول "أمي سكرانة، أمي سكرانة!".

قلت لها وأنا أضحك لسخافة الأمر:

- كلَّا، ليست كذلك. أمي لا تسكر يا "جيني"، أبي فقط يفعل.

تكتب "جيني" رسالةً مجددًا: "بل هي كذلك. أراهن أنهما لم تكونا تتسوقان، بل كانتا في بار. يمكنك شم الخمر منها. انظري إلى وجهها، إنه يبدو سكران.

قلت بإصرار:

- ليست كذلك.

ثم أمسكت ذراعها بكلتا يديّ وحركتهما في اتجاهين معاكسين كي ألوي جلدها وأؤلمها، حتى استسلمت وقالت إنها كانت تعبث معي وحسب.

إنها ليست سكرانة، ليست سكرانة، بل متعبةً وحسب.

***

الوقت الوحيد الذي أسمع فيه أي حديث هو عندما يسافر أبي بعيدًا بالطائرة. عندها قد تأتي الخالات لزيارتنا. وأحيانًا العمة "سال" و"أليس".

دومًا يريني أبي أين سيذهب على الخريطة، ويعلمني اسم المكان مثل بلدة "أسكوت"، وبلدة "شلتنهام"، وقرية "إينتري"، وبلدة "نيوماركت". أخبرني أن بلدة "لونج تشامبس" في باريس.

اعتاد أن يحضر هدايا معه إلى المنزل. لا أهتم بمعظم الهدايا، لأني أعرف أنها إما ستضيع أو ستنكسر. لكني أهتم بالهدايا القادمة من باريس، مثل لعبة كلبٍ يسير ويهز ذيله وينبح بالفرنسية "وو.. وو!"، أو دميةٍ مطاطية وجهها مليءٌ بالنمش وتخرج لسانها إن ضغطت على بطنها، أو تمثالٍ ذهبي لبرج إيفيل، أو علبةٍ طويلةٍ ورفيعة مليئة بزجاجات العطور الصغيرة.

تأتي الخالات دومًا أثناء النهار بعد ركوب أتوبيسين كبيرين، ويحضرن البسكويت والحلوى مثل كعكة الفواكه الداكنة، وبعضٍ من البرقوق من شارع "مور" اشترينه، بينما ينتظرن الأتوبيس الثاني.

دومًا يأتين في مجموعات، كمجموعة من الخالات ومعهن حقائب اليد الخاصة بهن. حين يأتين يقمن بتفريغ غضبهن؛ أولًا يعبرن عن غضبهن من الرحلة التي تستدعي ركوب أوتوبيسين، ثم عن استيائهن من حالة الحديقة، ويعنفن من تتحدث لأمي بوقاحة ومن لا تساعدها كفاية في أعمال المنزل.

بعدها يقمن بإعطائنا الحلوى كي نخرج لنلعب في الحديقة فيتحدثن عن أبي بطريقة سيئة.

إن أردنا معرفة ما يقلنه عن أبي، تتصنت "جيني" من النافذة أو تتسلل من الباب الخلفي وتختبئ في الصالة.

إن أتت "بولين" مع الخالة "ويني" يُسمح لها بالتنصت مع "جيني". لكنهما لا تأخذانني معهما أبدًا، تقولان أنني جبانة للغاية ودومًا ما يُقبض عليَّ لأنني أصطدم بالأشياء وأشهق بقوة حين أسمع شيئًا مثيرًا. أحيانًا لا تخبرني "جين" و"بولين" ما عرفتاه وهما تتنصتان، فقط كي يقولا إن معهما سرًا وتتركاني خارج الموضوع. عندئذٍ أضطر أن أرجوهما وأرجوهما وأعطيهما كل حلواي.

أحيانًا حين تخبراني أندم كثيرًا لأني لم أتمسك بحلواي.

تأتي "أليس" والعمة "سال" فقط أثناء الليل. إنهما لا تحضران البسكويت والحلوى، بل تجلبان زجاجاتٍ وحسب. إنها زجاجاتٌ مربعةٌ ومسطحة ملفوفة في مناديل ورقية تخرجانها من حقيبتيهما، أو زجاجاتٌ مستديرةٌ وكروية فيها مياه غازية تحملانها في أيديهما. تعطياننا بضعة شلنات وقُبلة ما قبل النوم مشبعة برائحة العطر ثم ترسلاننا إلى السرير.

أستلقي في الظلام وأسمع كل ضحكاتهما. أستمع إلى حديثهما الذي يتطاير خارج غرفة المعيشة. أنتظر دور كلٍ منهما لأعرف ما ستقول وماذا تعني.

"ما يسير على الرجل يسير على المرأة".

"جميعهم أوغاد".

"يومًا ما".

"لا أمانع، لكني أردت دومًا الذهاب إلى باريس".

ثم قد أسمع العمة "سال" تبكي. تقول: "لديَّ سيارة "رينو" حمراء. يا لها من بديلٍ عقيمٍ عن الأطفال. يا لها من بديلٍ عقيم عن الأطفال. هكذا هو الأمر".

حين تقول العمة "سال" ذلك، تبكي معها أمي و"أليس" أيضًا.

"جميعهم أوغاد".

"يومًا".

***

يسألني أبي ما إذا كنت قد كونت صداقاتٍ في مدرستي الجديدة. ما زال يسميها مدرستي الجديدة على الرغم من أني التحقت بها منذ أن نقلتني أمي من المدرسة البنية لأن رئيسة المعلمين تعاملت بدنائة مع "ديرديري". وقتها كنت سألتحق بالصف الثاني، أما الآن فسألتحق بالرابع.

أكره المدرسة الخضراء. هناك المئات من الفتيات اللاتي يرتدين الأخضر يجرين هنا وهناك، وربطة عنق خضراء سخيفة تخنق عنقي طوال اليوم، وتلك الجوارب الخضراء تثير الحكة في قدمي لدرجة الجنون. لا يوجد أتوبيس مدرسي، عليَّ السير للمنزل يوميًا ثلاثة شوارعٍ طويلة.

يسألني أبي هذا السؤال كل حينٍ وآخر، ويستاء حين أقول لا. لذا كي أجعله سعيدًا اليوم تظاهرت أني حصلت على الكثير من الصديقات. عندئذٍ فرح أبي كثيرًا وسألني أين يعشن وماذا يعمل آباؤهن.

ثم أراد معرفة جميع أسمائهن.

عندها قلت إني أحتاج إلى دخول إلى الحمام. جلست إلى جانب البانيو أفكر من أين سآتي بالأسماء.

يمكنني استخدام أسماء الفتيات في فصلي، لكن ستكون مشكلة لو قابل أبي أحد آبائهن في البار أو محل المراهنات أو في محل "هيتشكوك" وهو يشتري الجرائد. عندها قد يقول: "أعتقد أن ابنتك صديقة مقربة لابنتي "تاتي". فيقول الرجل: "ابنتي؟ انتظر إنها في السيارة، سأسألها". ثم يعود ويقول: "أظنك أخطأت، فابنتي تقول إنها لم تتحدث قط إلى "تاتي"، على الرغم من أنها تجلس أمامها بالضبط في الفصل. لذا أيمكنك إخباري كيف يمكن أن تكونا صديقتين مقربتين؟".

سيكتشف أمري وسيعرف كل من بالفصل ويقلن لي: "كاذبة، كاذبة، ستحترقين في النار".

الطريقة الوحيدة التي سأحصل منها على الكثير من الأسماء هي الكتب. وهكذا تخيلت صندوق قصصي تحت السرير، واخترت أسماءً من كل القصص المختلفة ودمجتُها معًا.

اخترت أسماء الفتيات وتركت أسماء الفتيان لأنه على الرغم من أن أبي لم يذهب للمدرسة الخضراء قط قد يعرف أنه لا يسمح بدخول الفتيان.

خرجت من الحمام وعدت لأبي. قلت له:

- حسنًا، هناك "دينا"، و"لوسي آن"، و"جورجينا"، لكننا نناديها "جورج"، و"دايزي"، و"كارلوتا"، و"بوبي"، لكن اسمها الحقيقي "روبرتا". ثم هناك "هيلاري"، و"بيليندا"، و"مارجوري"، و.. و.. هذا كل شيء.

- يا إلهي! إنها أسماء فاخرة وجميلة بالفعل.

- حقًا؟ لكن أسماء التوأم عادية.

- توأم أيضًا؟ توأم! ألم أقل لكِ ستكونين صداقات، صحيح؟ ما اسم التوأم؟

- "بات" و"إيزابيل سوليفان".

- هذا رائعٌ بالفعل.

من اللطيف إسعاد أبي بصديقاتي الجدد، ومن اللطيف لي أن أحظى بصديقاتٍ جدد. حتى لو كن خياليات. إنهن لسن من وحي خيالي أيضًا، بل هن في الكتب بالفعل.

عليِّ فقط التظاهر أني معهن في الكتاب وأتعايش معهن، هذا كل ما في الأمر. وهن وفيَّات كالصديقات الحقيقيات لأنه يمكنني الذهاب لأماكن معهن والتحدث معهن وهن يحدثنني ويشركنني أيضًا. أحيانًا يكن أفضل حتى من الصديقات الحقيقيات لأنه بالإضافة إلى معرفتي بأشكالهن وأين يعشن، أعرف أيضًا بما يفكرن ويشعرن حيال أي شيء. الصديقة الحقيقية قد لا تخبرني عن هذا.

لكن ذات يوم سألني أبي عن حال التوأم أمام "بولين" التي تحشر أنفها في كل شيء، فسألته:

- أي توأم؟

- صديقتا "تاتي". ألم تخبركِ عنهما؟ ما اسمهما يا "تاتي"؟ نعم، "سوليفان". "مارجوري" أظن؟ "مارجوري" و...

قالت "بولين":

- أتقصد "إيزابيل"؟ "بات" و"إيزابيل"؟

- نعم هذا صحيح! تعرفينهما إذًا.

ابتسمت "بولين" ابتسامة صغيرة خبيثة وقالت:

- أعرفهما جيدًا، لكنني لا أتحدث إليهما.

عندئذ خفت أن تـشي بي "بـولين". عـلى الـرغم مـن أنهـا ليـست ثرثـارة، لكنهـا قـد تخـبر "جيني"، عندها ربما تترك "جيني" الكتب في أي مكان يلاحظـه أبي، أو قـد ترفـع الكتـاب أمـام وجهها وهي تقرأ فيظهر العنوان "التوأم في سانت كلاريس" أو أسوأ.. "التوأم سوليفان".

هكذا هي "جيني". إنها ليست واشية، لكنهـا تجعلـك تعـرف أنهـا قـادرة عـلى أن تكـون كذلك.

النتيجة هي أن جميع صديقاتي الخياليات عليهن العودة إلى حيـث ينتمـين، إلى قصـصهن في الصندوق. قررت أنه حين يسألني أبي مجددًا عـن التـوأم سـأخبره أنهـما انتقلتـا إلى مدينـة "كورك" أو إلى أستراليا.

أفتقدهن جميعًا طوال الوقت. أفتقد الذهاب إلى النـوم لـيلًا ورؤيـتهن يـركبن الـدراجات بجوارها أو يلوحن لها وينادينها من أعلى تلٍ: "هيا يا "تاتي" أسرعي!".

كما أفتقد الـذهاب معهـن لأمـاكن لا يجـدني فيهـا أحـد مثـل تلـك الأمـاكن في القـصص؛ "سماجلرز توب" أو "ريلوبي فـير" أو "مـون كاسـل" أو "تـل بيليكـوك" أو "مـالوري تـاورز" أو "جزيرة كيرين" أو "سبيجي".

"هيا، أنتِ بطيئةٌ يا "تاتي"!".

***

أنا وحيدة، وحيدة. لقد سئمت، سئمت، سئمت.

لا تسمح أمي لأحدٍ بالمبيت في المنزل أثناء خصامها مع أبي، مما يعني أنه لا أبناء خالات.

سألتها:

- لماذا يا أمي؟

- لأني قلت لا.

- أرجوكِ يا أمي. لعطلة هذا الأسبوع فقط، بل لليلةٍ واحدة. أرجوكِ.

- قلت لا.

- لكن لماذا يا أمي؟ هل لأنهم قد يعرفون أنكِ وأبي متخاصمان؟

- كلَّا.

- حسنًا، هل لأن "بولين" سمعت أبي يقول ذلك الشيء عن الخال "ريتشي" وأنتما تتشاجران؟

- كيف تجرؤين! لست مضطرة لتبرير أفعالي لكِ. قلت لا وهذه نهاية النقاش. عودي إلى هنا. ماذا سمعت "بولين"؟

- لا شيء.

- ماذا سمعت؟

- لا أعلم.

- قلت أخبريني الآن. أنا أحذرك.

- ما قاله أبي عن الخال "ريتشي"...

- ماذا؟ ماذا؟

- أرجوكِ يا أمي. لا أريد البوح، لقد وعدت "بولين".

- عليكِ إخباري.

- لكنك كنتِ موجودة يا أمي. لقد سمعتِ ما قاله أبي.

- لا أتذكر. أريدك أن تخبريني.

- قال، قال...

- ماذا؟

- هناك الكثير من السباب يا أمي.

- فقط أخبريني.

- كل شيء؟

- كل شيء.

حاولتُ أن أتذكر كـل شيء. كانـت "بـولين" تقـرص ذراعـي كي أسـتيقظ وتألمـت. جلـست "بولين" عـلى الـسرير ووجهها الـصغير الأبـيض متـوتر ومـتحمس في الوقـت ذاتـه. أشـارت لي بالصمت وقالت:

- اسمعي، إنهما يتشاجران حول الخال "ريتشي". هناك سبابٌ أيضًا.

- كيف تعرفين بأمر الخال "ريتشي"؟ ليس من المفترض أن...

- اصمتي! بالطبع أعرف. لكن لا تخبري أمي.

بدا صوت أبي شريرًا وهو يتحدث إلى أمي ويقول تلك الأشياء عـن أخيها الـذي تحبـه كثـيرًا. قـال أبي: "أنـتِ وعائلتـك كلهـم سـفلة. لا تحـدثيني عـن... لا تفعـلي. تخليـتم عـن ابـن أمكـم، شقيقكم. تركتموه في ذلك المكان وحيدًا. تقولون أنه مـصابٌ باضـطرابٍ عقـلي، هـراء! بـل عـلى الأرجح تعفن من مرض الجدري الذي أُصيب بـه في "مـصر". وأنـتم تتركونـه يـتعفن وحـده، يـا للنبل! هكذا ستنتهين إن لم تغيري أساليبك، في مستشفى المجـانين ولـسانك يتـدَّلى خـارج فمـك. سيتدلي لسانك خارج فمك وستتحدثين هكذا لالالالا. تمامًا مثل أخيكِ المتعفن بالجدري لالالالا".

- هذا ما قاله يا أمي. لكن لا تقلقـي، لم تـصدقه "بـولين". قالـت إن تلـك سـخافة، كيـف يقضي الإنسان حياته في مستشفى لأنه مصابٌ فقط بالجدري؟! كما أنها تعرف بشأنه بالفعـل يا أمي. إنها تعرف. لكن الخالة "ويني" لا تعرف أنها تعرف. لم أخبرها، أقسم لكِ.

قالت أمي:

- اخرسي، اخرسي! هذا يكفي!

- لا تبكي يا أمي. أرجوكِ لا تبكي. أنا آسفة حقًا.

***

لا يسمح لنا أبي بالمبيت في منزل الخالات أثناء خصامه مع أمي.

سألته:

- أرجوك يا أبي، أيمكنني الذهاب؟

- لِمَ تريدين الذهاب هناك؟

- أشعر بالملل.

- لديكِ "جيني" لتلعبي معها.

- إنها لا ترغب في اللعب. لديها صديقاتها.

- أليس لديكِ صديقاتك؟

- ذهبن إلى أستراليا.

- محال أن يذهبن جميعًا إلى أستراليا اللعينة.

لا، لكن... إحم... إنهن يعشن بعيدًا.

- فهمت. اقرئي كتبك إذًا.

- قرأتها كلها.

- سأعطيكِ المال لتشتري كتبًا جديدة.

- لا أريد كتبًا جديدة. لعطلة نهاية الأسبوع فقط، بل لليلةٍ واحدة. أرجوك.

- سأخبركِ أمرًا، تعالي معي إلى سباقات الخيل بدلًا من ذلك.

- أكره تلك السباقات.

- كيف يعقل أن تكرهينها؟

- لِمَ لا تدعني أذهب؟ هذا ليس عدلًا. لِمَ لا؟ أرجوك، أيمكنك أن تخبرني لماذا؟ أرجوك.

- سأفعل بالطبع. لأنهم مجموعة من الجهلة والمنافقين. وأنا أكره أن يختلط بهم أولادي.

- لكن...؟

- لكن ماذا؟

- لكن أيعني هذا أني لن أزورهم يوم "سر التثبيت"[(2)] الخاص بي؟

- بالطبع يمكنك فعل ما تشائين في يومك المهم هذا.

ها قد أتى يوم "سر التثبيت" الخاص بي. أخذتني أمي في زيارة إلى الخالة "جون".

عندما وصلنا كان جميع أبنائها في المدرسة، أمَّا ابنتها ذات الشعر النافر تزوجت. مما يعني أنه لا يوجد ما أفعله سوى البقاء في المطبخ والاستماع إلى

(2) – يُسمى أيضًا "سر المسحة المقدسة"، وهو أحد طقوس الديانة المسيحية يتم فيه مسح الجسم بزيت "الميرون". يعتبر طقسًا تابعًا للتعميد، فيجدد العبد عهده مع الرب ويصير عضوًا في الكنيسة.

أمي وهي تشكو أبي. بعد وهلةٍ بدأت الخالة "جون" تشير إلى أمي بوجهها فيما معناه "ليس أمام الطفلة". لكن أمي انغمست في الحديث وعجزت عن التوقف، عجزت تمامًا.

حتى بدأت أبكي.

لم أتعمد البكاء، لكنه انطلق من تلقاء نفسه ورفض التوقف. أصابني شعورٌ غريب في رأسي، كانت خفيفة للغاية من الداخل، لكنها ثقيلة جدًا لأرفعها. اضطررت للاستلقاء على الترابيزة اللامعة الجيدة للخالة "جون". لم تتحدث إحداهما لوقتٍ طويل، لذا تركت رأسي مستلقيًا وأنا أبكي حتى جذبتني الخالة "جون" من كتفيِّ وقالت لي:

- ما هذا؟ ماذا تفعلين في يومك الخاص؟ أرينا وجهك حتى أمسحه بقطعة القماش تلك. ما خطبك؟

لم أعرف كيف أفسر لها ما يضايقني. لذا أخبرتها أني أعاني ألمًا في معدتي، فقالت:

- على الأرجح بسبب الشعور بالحماس، صحيح؟ بالطبع كذلك. أنتِ فقط متحمسة أكثر من اللازم بشأن يوم "سر التثبيت"، صحيح؟

- نعم يا خالة "جون".

أعطتني بسكويتة وكررت:

- أنتِ فقط متحمسة أكثر من اللازم بشأن يوم "سر التثبيت".

لكن كيف أتحمس بشأن شيء أكرهه مثل يوم "سر التثبيت" السخيف؟ وثوبي السخيف المكون من فستانٍ ومعطفٍ وشرائطٍ ملتوية كثيرة تشبه حلزونات فيروزية سمينة، كما سمعت أمي تقول في التليفون أني أبدو أشبه بجدةٍ سمينةٍ وضئيلة. وكأن شكلي ليس سيئًا بما فيه الكفاية. والبيريه ملتصق برأسي ويجعل شعري كله يتعرق. أمَّا ذلك الحذاء المائل ينزلق من كعبي باستمرار ليحاول إيقاعي على وجهي مباشرةً.

كيف أتحمس لأن أبي يأخذني للكنيسة ثم يرحل ولا يعود؟

بالخارج أرى كل فتاة من الصف الرابع تأخذ صورًا مع والديها بسعادة لأنها ستذهب لمكانٍ لطيفٍ معهما. سيذهبون إمَّا في سيَّارة أبيها أو في سيَّارة أجرة أو حتى سيقفون في المحطة في انتظار الأتوبيس. كل فتاة دومًا مع والديها يشكلون جميعًا أسرة، فيما عدا "بريدجت بيرس" فوالدتها متوفية لذلك تذهب مع عمتها الشقراء في كل مكان. أما أنا فأنتظر طويلًا وحيدة على سُلَّمِ الكنيسة الفارغ لأن الجميع ذهبوا وأمي تأخرت للغاية أثناء قدومها في التاكسي. عرفتُ من وجهها عبر نافذة سيارة الأجرة أنها في مزاجٍ سيئ. بعد ذلك ذهبنا إلى أحد المطاعم لتناول الغداء ومشاهدة ذلك الرجل مع المرأة في التليفزيون. قالت أمي:

- على الأرجح هي ليست زوجته حتى، لأن جميع الرجال الملاعين لا ضمير لديهم. جميع الملاعين...

- ماذا تعنين يا أمي؟

- أعني أنهم يواعدون أكثر من امرأة.

- لماذا؟

- لا شيء، انسي الأمر.

- أبي لا يفعل.

- ماذا؟ لا أسمعك، أنتِ تتمتمين ثانيةً.

- قلت إن أبي لا يواعد نساء أخريات.

- وكيف لي أن أعلم؟ كيف لي أن أعلم إن كان يفعل أم لا؟

بعد ذلك ركبنا تاكسي آخر للذهاب إلى منزل الخالة "جون". لا يوجد ما أسمعه طوال اليوم سوى شكوى أمي ثم بكائها الصاخب حتى نجذب الانتباه إلينا ونحرج

أنفسنا، وما زلت أشعر بملمس قطعة القماش العفنة التي مسحت لي بها الخالة "جون" وجهي. حسنًا، بعد كل ذلك كيف أكون متحمسة أكثر من اللازم؟!

***

بدأت تظهر فجواتٌ في شعرها. "براين" هو أول من لاحظ وقال لها:

- ما تلك الفجوة في شعرك؟

- أي فجوة؟ ما الذي تتحدث عنه؟

- تلك الفجوة.

- لا تكن غبيًا. كيف يُعقل أن تظهر فجوة في شعري؟

- لديكِ واحدة، لديكِ بالفعل؟ انظري هناك.

سار نحوها مشيرًا بإصبعه إلى مؤخرة رأسها. اقترب إصبعه أكثر وكاد يلمس رأسها، وفجأة صاح وسحب إصبعه بسرعة جدًا وكأن شيئًا يعضه.

قلت له: "يا لك من عابث!". ثم التقطت مرآة اليد الصغيرة من المجموعة التي اشترتها لي الخالة "ويني" بمناسبة "يوم التثبيت" الخاص بي. أخبرت "براين" أن يمسك المرآة خلف رأسي بالطريقة التي تفعلها مصففة الشعر حين تُري أمي تسريحة شعرها من الخلف. تنظر أمي في المرآة الأمامية الكبيرة وترى فيها المرآة الصغيرة التي تظهر مؤخر شعرها.

إنها فجوة مستديرة وبيضاء مثل جزيرةٍ صغيرة وسط رأسي.

إنها رقعة صلعاء سقط منها كل الشعر.

إنها أشبه بمخلوقٍ مستديرٍ صغير يأكل شعري على العشاء.

إنها فجوةٌ كبيرة في شعري.

صرختُ قائلة: "شعري! شعري! ساعدوني! يا أمي! أين ذهب؟ أين ذهب شعري؟".

أخذت أصرخ وأبحث في أنحاء الغرفة باحثةً عـن خـصلة شـعري لـكي أعيـدها إلى رأسـها. لكني لم أجد شيئًا.

تحوَّل وجه "براين" إلى اللون الأبيض وبدا الخوف في عينيه وهو يهمس لي:

- "تاتي".

- ماذا؟

- هناك واحدةٌ أخرى. واحدة أخرى هناك بالضبط، انظري!

***

حين ألعب لعبة القطار في الساحة وألعب القاطرة هذا يعني أني الموتور، أي أهم جـزءٍ في القطار. على جميع الفتيات الاصطفاف خلفي والإمـساك بي، يمـسك الجميـع سـترات بعـضهن واحدةً تلو أخرى. عليهن الانتظار حتى أكون مستعدة. عليهن الانتظار حتى أصـيح "تـشووو! تشووو!" ثم يبدأ القطار في التحرك.

قد لا أكون أكـبر قـاطرة في الـساحة، لكنـي الأفـضل. الجميـع يتهافـت عـلى أن يكـون في قطاري. الجميع ينادي اسمي.

يمكنني الشعور بوزن الفتيات الممـسكات بـسترتي، وبالقطـار يـسير مـن خلفـي في أنحـاء الساحة. أجذبهن بقوة لدرجة أن رُكْبَتَيَّ تقتربان كثـيرًا مـن الأرض وظهـري يحـترق، أمَّـا جلـد وجهي فيكاد يتشقق.

عندما يرن الجرس يحين موعد عودتنا للفـصل. أسـير إلى الحـمَّام وأغـسل وجهـي وأمطـئ ظهري وأدعكه قليلًا. أدخل إلى الفصل وأجلس مكاني.

***

أفكر في الحصول على صديقة. صديقة حقيقية هذه المرة بدلًا من صديقة خيالية من كتاب. لكني لا أريد صديقة مقربة كي لا أضطر للاهتمام بشأنها كثيرًا مما يعني أني سأتشاجر معها وأهينها وأسيء إليها بالكلام عن أخواتها وإخوتها. عندها سأضطر لسماعها تقول الشيء نفسه لي.

صديقة عادية ستفي بالغرض، صديقة ألعب معها بين حينٍ وآخر. أسير معها من المدرسة إلى المنزل، وربما أخبرها أحوالي. وأسمعها تخبرني أحوالها.

لكن كيف أحصل عليها؟

أفكر بسؤال "جيني"، سأقول: ""جيني"، كيف أحصل على صديقات؟".

لكن "جيني" تكره ن يتدخل أحدٌ في شؤونها. ستقول لي: "لا تتدخلي في شؤوني وإلا ضربتك".

لدى "جيني" العديد من الصديقات مع أن أمي تقول دومًا إنها تقلق عليها لأنها هادئة جدًا. لكنها ليست كذلك مع صديقاتها. أرى "جيني" أحيانًا تلعب مع صديقاتها في شارعٍ قريبٍ من المدرسة، لكنه بعيدٌ عن المنزل. تلعب "جيني" نط حبل مع صديقاتها، أو لعبة قذف الكرة على الرصيف، حيث يقف فريق على رصيف، والفريق الآخر على الرصيف المقابل، ويحاول كل فريق قذف الكرة إلى الفريق الثاني في الرصيف المقابل، أو يلعبن الحجلة. لكن أحيانًا لا يلعبن أي شيء؟ أحيانًا يجلسن فقط على السور ويؤرجحن أرجلهن ويقرأن كتاب "جاكي" بينما يضحكن ويتحدثن فيما بينهن.

لا أجد صديقة في شارعي. الجميع إمَّا صغيراتٍ جدًا وإمَّا غبياتٍ جدًا. ألعب فقط بالدمى وعربات الأطفال والألعاب البسيطة الهادئة في حدائق المنازل خلف البوابات المربوطة بقطعٍ قديمة من الأوشحة أو الجوارب أو أقمشة التنظيف. إن أردت الدخول، على الأم أن تخرج وتفتح العقدة بأظافرها. إن لم يعجبك الوضع في الداخل تنادي على الأم مجددًا. لكن قد تظن أنك لا تحب اللعب مع صغارها لذا عليك البقاء لأنك إن تسلقت السور ستعنفك الأم وتقول إن ابنها "بريندن هيرلي" يقلدك وسقط من على السور وانفتحت شفته.

أفكر بسؤال أمي وما قد تقوله.

- أمي، كيف أحصل على صديقات؟

- تتصلين بهن عبر التليفون وتخبريهن جميع أحوالك. تصنعين لهن الشاي، بينما يخبرنك أحوالهن. تقرضينهن قبَّعاتك وحقائب يدك حين يذهبن إلى زفاف. تتسوقين معهن، وتتناولن مشروبًا من الزجاجات التي يخرجنها من حقائبهن. ثم تخبريهن أحوالك مجددًا؟

لكن معظم صديقات أمي هن أخواتها فيما عدا العمَّة "سال" و"أليس".

حين تخرج أمي مع العمَّة "سال" أو "أليس" تعطيني مالًا لشراء الغداء. إن كان يوم جمعة أتناول بطاطس شيبسي لأن مطعم السمك والبطاطس يكون مفتوحًا طوال اليوم. إن لم يكن يوم جمعة فعلبة طعامٍ محفوظ من شربة اللحم وعلبة بازلاء أو ربما علبة من فطيرة اللحم والكبد.

تقول أمي دائمًا: "فقط مرة واحدة لن تضر".

عندها تغضب "جيني" لأن أمي لا تجيد العد. تقول "جيني": "هذه ثالث مرة هذا الأسبوع. أعني، كم مرة في الأسبوع تظننا قادرين على تحمل ذلك؟".

لكنني لا أمانع مهما كثر عدد المرات في الأسبوع.

أحب أن أكون مسؤولة عن الغداء. أرتب المائدة كما يحلو لي، وأعد رقائق بطاطس شيبسي واحدةً تلو أخرى، وأشعر بملمس فتَّاحة العلب الجديدة الجميلة في يدي وهي تعض العلبة لتفتحها دائريًا. يستغرق الأمر وقتًا طويلًا للوصول إلى فطيرة اللحم والكبد، وحين ترفع الغطاء تجد الفطيرة الكبيرة. بعدها أرسم ما يشبه عينين وابتسامة على سطحها، وأشغِّل الأغاني بأعلى ما يمكن، بينما أنتظر الفطيرة حتى تنضج في الفرن ويتحول لونها إلى اللون البني. أرقص في المنزل حاملةً "لوكي"، بينما "ديرديري" و"براين" خلفي. ونردد كلمات الأغنية.

تحاول "جيني" جذب انتباهي حين تصل أمي للباب الأمامي.

لكني دومًا أنظر إلى الجانب الآخر.

تحاول "جيني" قول شيئًا ما لي حين تأتي أمي إلى غرفة المعيشة.

لكني أغطي أذنيِّ وأغمض عينيِّ وأذهب إلى غرفةٍ أخرى.

أفعل ذلك في حال أرادتني أن أقرأ إحدى رسائلها السخيفة أو أرادت قول شيء غبي عن أمي.

أفكر بسؤال أبي وما قد يقول.

- أبي، كيف أحصل على أصدقاء؟

غالبًا سيقول لي: "تذهبين إلى البار معهم وتشتري لهم الخمر. توصليهم بسيارتك إلى سباقات الخيول. تشترين لهم تذاكر الدخول، ثم تشترين لهم المزيد من الخمر، وتخبرينهم العديد من النكات. إن كانوا جوعى تشترين لهم طعامًا في طريق العودة للمنزل، اشتري لهم شريحة لحمٍ كبيرة وبطاطس شيبسي فاتح اللون. ولهذا يحبونكِ ويريدون صداقتك".



1971



أعطهم شيئًا يحبونه.

يضع أبي كثيرًا من الخردل على شريحة اللحم الخاصة به.

أمي تسوِّي الجبن الذائب.

"ديرديري" تأكل لوح شوكولاتة "كيرلي ويرلي" بالكراميل. كلما أخذت قضمة بأسنانها، امتدت خيوط رفيعة من الكراميل خارج الشوكولاتة وهي تبعدها عن فمها.

"براين" يلعب بكرات حلوى "مالتيزرز".

"جيني" تزيل القشرة الزهرية من على حلوى "برانشز".

"لوكي" يفرك حلوى "ليجا" مع اللبان.

الجميع يحب تناول شيء ما. الجميع يحب لمس ما يأكله.

ماعدا "جيما كوفلان" التي لا تتحمل ملمس أي شيء في فمها. حتى لسانها يثير جنونها، دومًا تنقر عليه بإصبعها وكأنها تأمل أن يسقط. تعطي غداءها عادةً إلى "بريدجت بيرس"، فيما عدا حين لا يكون جيدًا تقول لها "بريدجت" أن تعطيه لشخصٍ آخر.

لا أكون أبدًا هذا الشخص. لكن لا بأس، لأنه حين تقول: "بريدجت بيرس" أن غداء "جيما" ليس جيدًا فهذا يعني أنه لحمٌ معلبٌ مملحٌ وكثير الدهن أو كتلٌ من الشمندر تجعل الخبز أشبه بضمادة تتسرب منها الدماء".

أخبرت ابنة خالتي "بولين" بشأن غداء "جيما كوفلان"، فقالت:

- خمني كيف تعرفين إن كان هناك فتاةٌ فقيرة في صفك؟

- كيف؟

- ستكون الفتاة التي تأخذ الغداء الذي لا تأكله "بريدجت بيرس".

قالت لي المعلمة إن أتوقف عن أحلام اليقظة، بينما أنظر من النافذة.

المعلمة لا تناديني بـ"تاتي"، بل بـ"كارولين"، ثم تقول لقب عائلتي بالآيرلندية، وهذا يجعل اسمي يبدو وكأنه ينتمي إلى شخصٍ آخر. لكني لم أكن أشرد، بينما أنظر من النافذة، بل لم أكن أنظر حتى بالقرب منها. كنت أنظر إلى الرف الطويل أسفلها.

كنت أنظر إلى الرف وأفكر بوجبة الغداء.

بعض وجبات الغداء كبيرة وتأخذ مساحةً كبيرة. إنها دومًا مُغطاة بنوعٍ من التحلية مثل قطع الفواكه أو كرات الشوكولاتة وبسكويت الشوكولاتة وأقراص الفواكه المحلاة. هناك بعض وجبات الغداء الصغيرة للغاية حتى أنها بالكاد تأخذ أي مساحة. قد تتكون فقط من بطاطس شيبسي. وذات مرة جلبت إحداهن نصف لوحٍ من الحلوى قسمته أمها من المنتصف بالضبط كي تتقاسمه مع أختها التي في فصلٍ آخر.

قالت "بولين" أيضًا إنه إذا عددت وجبات الغداء وعددت الفتيات فوجدت عدد الفتيات أكثر من عدد وجبات الغداء ستعرف إن كان هناك فتيات فقيرات في الفصل، إلا إذا نسين وجبات غدائهن بالخطأ وحسب.

حين تنسى إحـداهن وجبـة غـدائها بالخطـأ قـد تـأتي والـدتها وتطـرق البـاب في منتـصف الفصل؟ عندها عليك أن تفتح أذنيك كي تسمع الهمس جيدًا.

"آسفة لـ(وش وش وش)، لكن مـا كنـت (وش وش وش) لــ(وش وش وش). شـكرًا جـزيلًا لـ(وش وش وش)".

إن فتحت المعلمة الباب قد لا ترى والدة من وصلت لأن حقيبة المعلمة كبيرة جدًا وهـي بالكاد تفـتح البـاب. عنـدها تخـشى مـن أن تكـون والـدتك لأنـك تعلـم أن جميـع الطالبـات سيحدقن بها من النافذة حين تخرج عائدة.

لكن إن فتحت إحدى الطالبات الباب قد تلمح مـا تتعـرف بـه عـلى الوالـدة، ربمـا يكـون حذاءها أو سترتها. لكن إن لم تتعرف على شيء هذا يعني أنها ليست والدتك. عنـدها تتـنفس الصعداء وتستقيم في جلستك وتنظر من النافذة وتحدق كالمجنون في الوالدة أيًا كانـت وهـي تغادر الساحة.

أنظرُ إلى الرف...

هناك صناديق طعامٍ بلاستيكية شاحبة الألوان، وعلبٌ من الورق الرمادي المضاد للدهون، ومغلفاتٌ مربعةٌ ناعمة من ورق الألمونيوم اللامع، وكيسٌ مـن شرائـح الخبـز المغلفـة بـالورق الاسترتيتش الشفَّاف، وربطة طعام مثل التي تجدها عند الجزَّار تعود لـ"بيرني هـاينيس" لأنهـا الوحيدة التي يعمل والدها جزارًا.

هناك زمزميات ميـاه مغلَّفـة بقـماشٍ صـوفيٍ كاروهـات، وأكـوابٌ بلاسـتيكية، وحليـبٌ في زجاجاتٍ زجاجية كالتي يحضر بها بائع اللبن، لكن أصغر. هناك زجاجات أخـرى تحتـوي عـلى الحليب، لكنهـا كانـت تُـستخدم في أغـراضٍ أخـرى مثـل زجاجـات ملـين الأمعـاء أو الويـسكي الآيرلندي أو حتى زجاجة قديمة لـدواء سـعال مثـل التـي نـسيت أن تغـسلها والـدة "إيميلـدا روني"، وعندما سكبتها في الحوض نـزل منهـا الحليـب الأبـيض المخـتلط بـاللون الزهـري مثـل مثلجات بلون التوت.

تسمَّى زجاجات الويسكي الصغيرة "بيبي باور"، وإن كان هنـاك واحـدة عـلى رف وجبـات الغداء فالجميع يعلم أنها لـ"نيف لولر".

منذ فترةٍ قصيرة كنت لتجد زجاجتي ويسكي "بيبي باور" على الرف، عندئذٍ ستعرف أن الثانية لي. وإذا صاح أحدهم متسائلًا: "من يملك زجاجة الويسكي الأخرى؟"، كنت أصيح مجيبةً: "أنا، إنها لي!".

كان هذا قبل أن تعلمني "جيني" كيفية الشعور بالحرج.

عندما تذهب أختان إلى المدرسة ذاتها من المفترض أن تسيرا معًا حتى ولو كانتا في صفين مختلفين، لكن "جيني" تحب السير وحدها.

تقول إنها لا تريدني أن أتحدث إلى صديقاتها اللاتي يقابلنها عند الزاوية. لا تريدني أن أتحدث معهن خشية أن أتحدث عن شؤون العائلة أو أسوأ وهو أن أختلق قصصًا سخيفة لا يصدقها سوى الحمقى. تقول أني ثرثارةٌ كبيرة، لذلك أمنحها خمس دقائق لتتقدمني في السير يوميًا.

لكن ذلك اليوم مللت من الانتظار في البرد مدة خمس دقائق، لذا بدأت أسير خلف "جيني" بعد دقيقتين فقط. عندئذٍ رأيت "جيني" تقذف شيئًا من فوق الجدار. ظننت أنه منديلٌ نظرًا للطريقة التي ألقته بها إلى شجيرات أحد المنازل في زاوية شارع "فيرن هيل".

لكن عندما وصلت للزاوية ونظرت لم أجد أي مناديل. هناك فقط زجاجة ويسكي "بيبي باور" مليئة بالحليب متشابكة في الشجيرات. لم تكن وحيدة بل هناك مجموعةً صغيرةً جوار الجدار. تخيلتها كومة قمامة من زجاجات البيرة الجديدة المكدسة جوار بعضها بجانب الجدار. من الغريب حقًا أن يلقين بزجاجات حليبهن من فوق الجدار. هذا غريب حتى بالنسبة لـ"جيني".

ركضت حتى وصلت إلى أختي، وسألتها:

- لمَ فعلتِ ذلك؟

- فعلت ماذا؟

- أنتِ تعرفين، لقد رميتِ زجاجة الحليب الخاصة بك.

- لم أفعل.

- لقد رأيتكِ. رأيتكِ وعليكِ إخباري بالسبب وإلا...

- لم أفعل.

- حسنًا إذًا. سأخبر والدينا بما فعلتِ، كما سأخبرهما أنكِ لا تـسمحين لي بالـسير معـكِ إلى المدرسة.

- لم أشأ أن يعلم شخصٌ بالأمر.

- لماذا؟

- لماذا برأيك؟!

- كيف لي أن أعرف؟

- إنها زجاجة ويسكي، أيتها الغبية.

- إذًا؟

- أقول ويسكي.

- إذًا؟ الكثير من الفتيات يحضرن...

- كلَّا، لا يفعلن.

- "نيف لولر"...

- والد "نيف لولر" سكِّير. الجميع يعلم ذلك.

- أوه.

- لا أريد للناس أن يظنوا...

- أوه.

- انظري، إنها "شارون". عليَّ الذهاب.

- لكن ماذا ستفعلين لو شعرتِ بالعطش؟

- لن أعطش.

- قد تفعلين.

- لن أفعل.

أفكِّر بشأن وجبات الغداء...

أحيانًا يمكنك تخمين صاحبة كل وجبة. أفضل الوجبات تعود لفئة محددة من الفتيات. إنهن الفتيات اللاتي يرتدين جوارب مثقوبة وأحذية سوداء ناصعة، مثل "جيرالدين درابر". تجلب معها بسكويت الشوكولاتة وزجاجة الكولا تفتحها بفتاحتها الخاصة. لديها ساندويتش مثلث الشكل في صندوق غدائها وأيضًا شيبسي من نوع "كينجز شيبس" يشتريها والدها من محلٍ بالقرب من عمله. أحيانًا تضع بطاطس شيبسي في ساندويتشها وإصبعها الصغيرة مرفوعة لأعلى.

تهتز جدائل شعرها، وتربطها بشريطةٍ مختلفة في كل يومٍ من أيام السنة. ترتدي قفَّازاتٍ صوفيةٍ بيضاء في الشتاء مع وشاحٍ صوفيٍ أبيض ليتماشى معها. كتبها المدرسية محاطةٌ بأغلفةٍ بلاستيكيةٍ ملونةٍ وجميلة، ومقلمتها دومًا ممتلئة.

لا يمكنك إعطاء "درابر" شيئًا تحبه لأنها غالبًا تمتلكه.

أمَّا غداء "نيف لولر" فلا يشبه غداء "جير درابر" على الإطلاق. يتكوَّن من ساندويتش مربع واحد ملفوف بورقٍ بني مطوي من نهايته حتى لا يسقط عن الساندويتش. بدا الساندويتش المغلف أشبه بسمكةٍ بنية ترقد على جانبها.

سمكةٌ بنية بجوارها زجاجة لبن "بيبي بوتل".

لديها حقيبة مدرسة تحتضنها طوال الطريق لأن حمالتيها مكسورتان، ولديها صندل بلاستيك ترتديه في المطر. يمكنك إعطاء "نيف لولر" شيئًا تحبه

لأنها لا تملك شيئًا قد تحبه. لكن "نيف لولر" تكره أخذ الأشياء. قد يجن جنونها إن حاولت إعطاءها رقاقة شيبسي تافهة صغيرة.

أعرف ذلك لأني حاولت ذات مرة وقدمت كيس بطاطس شيبسي المفتوح إليها مباشرة. بدا واضحًا أنها تتحرق شوقًا لتذوقها، فحنجرتها تتحرك، وتبتلع لعابها، وتكاد عيناها تقفزان من محجريهما. لكنها ظلت تقول: "لا شكرًا، لا شكرًا، لا شكرًا". ثم ثارت قائلة: "قلت لا! هل أنتِ غبية أم صمَّاء؟!".

وفي مرةٍ أخرى أعطتها المعلمة كتاب "المبادئ الدينية المسيحية" لتعرف أسئلة وإجابات يوم "سر التثبيت" الخاص بها. قالت المعلمة إنه يمكنها الاحتفاظ به لأنه يأخذ مساحةً في الخزانة ومن الأفضل أن يُستخدم فيما يفيد.

كان وجه "نيف" يغلي من الغضب حين ذهبت إلى ترابيزة المعلمة كي تأخذ الكتاب، كان وجهها يغلي حقًا حتى عنقها. رأيت الكتاب يهتز في يدها حين أخذته عائدة إلى مكانها. رأيتُ عينيها تدور في محاولة لكبت الدموع. لم تكن سعيدة لأنها حصلت على كتاب "المبادئ الدينية المسيحية" مجانًا ولم تكن محرجة، بل كانت ثائرة من الغضب لأن المعلمة جعلتها تأخذه. لقد كرهَت حقًا تلك المعلمة بسبب ذلك.

"بريدجت بيرس" عكس "نيف" تمامًا. إنها لا تمانع أخذ الأشياء مطلقًا، بل تحب الأمر في الواقع. وليست مضطرة حتى للسؤال، فالجميع يعطونها الأشياء طوال الوقت، أو يقرضونها أشياءَ ويقولون في النهاية إنه يمكنها الاحتفاظ بها. مع أن "بريدجت بيرس" يتيمة الأم إلا أنها تحظى بوجبات غداءٍ جيدة ولديها الكثير من الأغراض الجميلة. لكنها ما زالت ترغب فيما يملكه غيرها، ما زالت ترغب في كل ما تراه.

تقف عند مكتب فتاة، وتقول: "يا إلهي! هذا رائع!".

تقف عند رف وجبات الغداء وتقول: "هذا المفضل لديَّ! يا لكِ من محظوظة".

تقف في الساحة وتتنهد قائلة "هذا جيدٌ لكِ...".

تقف في أي مكان وتصيح: "هل أحتفظ به؟ أنتِ واثقة؟ أشكركِ مليون مرة، مليون بليون تريليون مرة!".

معها أستيكات جميلة للغاية تشبه الحلوى، ومشابك شعرٍ جديدةً وأنيقة، وطوق شعرٍ مطاطي. كما تحصل على الآيس كريم في طريق العودة من المدرسة إلى البيت. كما تقترض راديو ترانزستور في عطلة نهاية الأسبوع. وتقرأ مجلات كوميكس جديدة غير مستعملة.

لهذا يمكنك إعطاء "بريدجت بيرس" شيئًا تحبه، لأنها تحب كل ما تراه (ما عدا اللحم المعلب المملح أو ساندويتشات الشمندر). وحتى لو لم تحب الشيء بدرجةٍ كبيرة ستأخذه. وإن أخذته قد تصير صديقتك.

وإن صارت صديقتي سيضايق هذا "جيني" وأبي وأمي و"ديرديري" و"براين" وصديقه الخيالي الغبي "مينتي" أيضًا.

***

تقول أمي إنه عليَّ الذهاب إلى الجزار لشراء نصف كيلو من اللحم المفروم، ونصف كيلو من الريَش.

عليِّ التأكد من وضع العملات المعدنية في جيبي كي لا أفقدها لأن أمي لديها فقط ورقة نقدية واحدة إلى أن تذهب إلى البنك.

تقول أمي إنها ستكتب الطلبات لي في ورقة في حال نسيتها، لكنها لم تجد أي قلم.

نصف كيلو من اللحم.

يقع البنك في حي "تيرينور"، لذا عليها أن تسرع لأنه علينا ركوب الأتوبيس، وقد ننتظره وقتًا طويلًا. بعد مغادرة البنك علينا شراء أحذية جديدة لـ"ديرديري" من متجر "كريبس".

نصف كيلو من الريَش.

لهذا السبب تريد أمي أن تضع العشاء على النار حتى يكون جاهزًا عند عودتنا.

نص كيلو؟

لحمٌ مفروم، ريَش، ريَش، لحمٌ مفروم.

نصف كيلو كبير وضخم من أحدهما، ونصف كيلو صغير من الآخر.

عندما نـصل إلى "تيرينـور" ربما نـذهب إلى متجـر "إيتـون" وتـشتري لنـا أمـي بـسكويت الشوكولاتة على شكل الأرنب كي نتناوله بعـد العـشاء. عنـدما نـصل إلى "تيرينـور" سـأرى إن كانت أمي سيئة المزاج أم لا، قـد أسـألها إن كـان يمكننـا الـذهاب إلى متجـر "كوبلانـد" لـنرى الكتب.

هناك الكثير من الكتب في متجر "كوبلاند"، إنها موضوعة على أرفـفٍ أفقيـةٍ طويلـة تمتـد مسافةً بعيدة. أمَّا متجر "أوكونور" لديه فقط بضعة كتبٍ على رفٍ عمودي. كتبٌ سخيفة من دار نشر "ليدي بيرد" عن "بيتر" و"جاين" والقليل من الكتب الجيدة التي أنتهـي منهـا سريعًـا جدًا وأظل أنتظر إلى الأبد حتى تصدر الكتب الجديدة.

"ديرديري" لا تحب كتب "ليـدي بـيرد"، فهـي تخـاف مـن "بيـتر" و"جـاين". عنـدما تـرى صورتهما تصرخ وتخفي وجهها في الوسادة. تقول أمي أنها لا تلومها، فشكلهما مثـل عجـوزين تنكرا في هيئة طفلين.

الكتب التي في أعلى الرف جميعها عن التقبيل. لـيس مـسموحًا لي بـالنظر إليهـا. يمكننـي رؤيتها بوضوحٍ فقط إذا وقفـت عنـد البـاب عـلى أطـراف أصـابعي. هـذا يجعلنـي أرى أيـضًا صناديق مسحوق الغسيل "داز" وعلب السردين على الرف الخلفي.

أحيانًا أرى على الأغلفة طبيبًا يقبِّل ممرضة أو ربما طيَّـارًا يقبِّـل مـضيفة طـيران أو مـديرًا يقبِّل موظفة الآلة الكاتبة. المهم أنه هناك دومًا اثنان يتبادلان القبل.

أمي دومًا تكتب لأبي على الآلة الكاتبة.

تصدر الآلة أصواتًا مثل كليك، كليك، كليك، بينج!

يحمل أبي الآلة الكاتبـة إلى المطـبخ ويـضعها عـلى الترابيـزة، بيـنما يـزيح أطبـاق الإفطـار بمرفقيه. يقف خلف أمي ويمـلي عليهـا مـا تكتبـه. يمكنهـا الـتماشي مـع سرعتـه في النطـق. في البداية تكون الصفحة متيبسة وقائمة ثم تنحني. أولًا تكون الصفحة بيضاء جديدة ثـم تمتلـئ بالكلام الأسود.

إن كانا متخاصمين، يكتب الرسالة ويتركها على ترابيزة المطبخ لأمـي كي تكتبهـا عـلى الآلـة الكاتبة. تزيح أمي طعام الإفطار شيئًا شيئًا وتمسح الترابيزة. ثم تحمـل الآلـة الكاتبـة وتـضعها بنفسها.

عندما يضع متجر "أوكونور" كتبًا جديدة على الرف يمكنني القيام بخدعة. إليك خـدعتي. أشتري كتابًا وأقرأه بسرعة للغاية ثم أعيـده قائلـة: "لم أعلـم أن أختـي تمتلـك الكتـاب نفـسه، أيمكنني تبديله من فضلك؟".

عليّ التأكد من عدم ترك أي علامات عـلى الكتـاب. لا يمكننـي تنـاول المقرمـشات أو ثنـي الصفحات. عليَّ التأكد من أن السيد "أوكونور" هـو مـن يقـف عنـد ركـن الـدفع، لأنـه دومًـا يسمح لي بالإفلات بفعلتي.

أمَّا السيدة "أوكونور" فلا تسمح أبدًا. تقول: "عذرًا، هذا غير قابل للنقاش! أتظنين أنها "م-ك-ت-ب-ة ؟!". لا أعرف لمَ تنطقها هكذا.

لا تصدق مساعدة السيدة "أوكونور" تلك الخدعة أيضًا. تقول: "توقفي عن فعل هذا وإلا ركلتك على أنتِ تعرفين ماذا. اخرجي الآن قبل أن أخبر والدتك".

المرأة التي تعمل هناك تُدعى "آفا". لديها أنفٌ أفطس. يبدو صوتها كـما لـو أنهـا مـصابةٌ بالبرد. حين تتكلم عـليَّ الإصـغاء جيـدًا وإلا ظننـت أنهـا تقـول "أخ" بـدلًا مـن "أم"، وعنـدها سأتساءل لماذا ستخبر "براين".

نصف كيلو من "اللحم المريّش" ونصف كيلو من "الريَش المفرومة".

لكن حين وصلتُ إلى محل الجزارة مررتُ بجواره تمامًا. ثم عبرت الشارع ومررتُ أمامه، لكن من الجهة الأخرى.

عددت الأسباب التي منعتني من الدخول.

صاحبه بالداخل وهو دائمًا يسخر مني. يقول: "أما زلتِ تمصين إبهامك؟ هيا، مُصيه".

رائحة المحل عفنة، وحين يُغلق الباب من خلفي أعجز عن التنفس، لأنه في كل مرة أفتح فمي تدخل الرائحة العفنة من بين أسناني.

يبدو اللحم المفروم أشبه بكومة من الديدان. والسجق يشبه الأصابع الميتة.

يناديني صاحب المحل دومًا بـ"جينجر"، ثم يقول إنه سيتزوجني بينما يمسح جانب سكينه بمريلته المغطاة بالدم.

ذات مرة أراني قلبًا صغيرًا أحمر اللون وقال إنه قلب فتاةٍ صغيرة لم تكن تسمع الكلام.

تذكرت للتو أن "بريدجت بيرس" تسكن بالقرب من هنا.

لكن "بريدجت" لم تفتح الباب، بل والدها. كان يرتدي "فانلة" بلا أكمام ويحمل كوب شاي وسيجارة، وهناك ورقةٌ ملتصقةٌ بمرفقه. هناك القليل من الشعر البرتقالي النامي على كتفيه. توجد صورةٌ لحورية بحر كبيرة وزرقاء اللون على ذراعه. يمكنني رؤية صدرها العاري بارزًا. أشعرني هذا بالخجل وبرغبةٍ في الضحك والفرار. عجزت عن الكلام. سألني السيد "بيرس":

- أتبحثين عن "بريدجت"؟

- آآآ...

- ماذا؟

- آآآ...

أدار رأسه فوق كتفه المشعرة ونادى بصوتٍ جهوري:

- "بيزي!".

يناديها "بيزي". هذا أغرب اسمٍ سمعته في حياتي.

ظهر وجهها أعلى الدرابزين، ثم ظهرت قدماها، بينما تنزل السُلَّم ببطء. سألتني:

- ماذا تريدين؟

- أهلًا "بريدجت". كنت فقط...

- ماذا؟

- كنت فقط... هل ستخرجين؟

- لماذا؟

- لـ... حسنًا، لا شيء حقًا. أراكِ لاحقًا.

- نعم، إلى اللقاء.

هكذا قالت ثم بدأت تغلق الباب.

- مهلًا "بريدجت"، لقد تذكرت لتوي... إممم؟؟؟ أتعرفين خالتي التي تعيش في أمريكا؟

- لا.

- حسنًا، خالتي التي في أمريكا أرسلت هذه لي. لا أعرف ماذا أفعل بها، لذا كنت سأشتري وليمة. أتريدين...؟

- انتظري لحظة. عليّ إخبار أبي.

- ماذا؟

- سأخرج يا أبي.

- لا توصدي الباب لأن عمتك "بيرل" ستأتي، وربما تكون قد نسيت نسختها من المفتاح. مهلًا.

- ماذا؟

- متى ستعودين ؟

- لا أعرف.

- كما تشائين، لا تتعجلي. لنقل ساعةً ونصف على الأقل. اتفقنا يا "بيزي"؟

يناديها "بيزي".

داخل محل "هيتشكوك" للحلوى حاولت إبقاء الأمر لطيفًا وثابتًا.

نقر السيد "هيتشكوك" بأصابعه على "الكاونتر". نظرت إلى الأرفف من خلفه، رفًا بعد آخر. يد السيد "هيتشكوك" مستعدة فوق علب العملات المعدنية من فئة قرشٍ ونصف قرش. انحنيت على زجاج ثلاجة كيك الآيس كريم. زفر السيد "هيتشكوك" بنفاد صبر، وسأل إن كنت قد اتخذت قراري.

- تقريبًا، إمم، دقيقةٌ أخرى، إمم...

حسنًا، ما من داعٍ للاستعجال، مهما يكن ما تفعلينه.

ثم ذهب إلى الناحية الأخرى، وبدأ يتصفح جريدته.

- عذرًا، سيد "هيتشكوك"؟

- ماذا؟

- أنا جاهزة للاختيار الآن.

عاد إليَّ ووقف عند علبة القروش.

أخذت نفسًا عميقًا وقلت بسرعة:

- أريد كيسًا من المارشميللو، وزجاجة كبيرة من توت العليق، وقطعتين من شوكولاتة المكسرات، وقطعتين من خليط الزبد والشراب المسكر، وقطعتين من الملبن، ولوحًا من شوكولاتة "توبليرون" السويسرية مثلثة الشكل. أتحبين شوكولاتة "توبليرون" يا "بريدجت"؟

- أوه "توبليرون"! إنها المفضلة لدي.

- فلتكن قطعتين من شوكولاتة "توبليرون"، و...

قالت "بريدجت":

- مقرمشات. لا تنسي المقرمشات.

- نعم، صحيح. أريد كيسين من المقرمشات بنكهة الجبن والبصل.

قالت "بريدجت":

- بالملح والخل.

- أوه، أعني بنكهة الملح والخل، و...

- لا، أعني اشتري تلك النكهة بالإضافة إلى النكهة السابقة.

- حسنًا. أريد كيسين من كل نهكةٍ من فضلك، و...

- وشوكولاتة بالكريمة.

- أريد قطعتين من الشوكولاتة بالكريمة...

ثم نظرت إلى "بريدجت" لأرى إن كانت تريد شيئًا آخر. قالت:

- وقطع الشوكولاتة الصغيرة.

- أريد كيسًا من قطع الشوكولاتة الصغيرة.

- ماذا عن مخروط الشوكولاتة المحشو بجوز الهند والكريمة؟ أتحبينه يا "كارولين"؟ أنا أعشقه.

قال السيد "هيتشكوك":

- يا إلهي! ستكونان في غاية البدانة حين تنتهيان من تناول هذا كله. هل ربحتما اليانصيب؟

قلت:

- كلَّا، أنا... أمم... نحن... أأ...

قالت "بريدجت":

- في الواقع أرسلت لها خالتها بعض المال من أمريكا.

- لديكِ خالة في أمريكا؟ حسنًا، أين بالضبط؟

- أوه، حسنًا ماذا يسمى هذا المكان؟

قالت "بريدجت":

- هوليوود. كدنا ننسى كيك الآيس كريم. أيمكنني الحصول على كوميكس أيضًا يا كارولين"؟

- نعم، يمكنك الحصول على ما تشائين.

- واثقة؟

- نعم.

- حقًا؟

- حقًا.

- أوه، أشكرك مليون مليار تريليون مرة!

ذهبنا إلى حقل "كولين" خلف المنازل الجديدة. قسّمت الحلوى بيني وبينها. جلست "بريدجت" القرفصاء كالهنود ووضعت مجلتي "جون" و"سكول فريند" بين ساقيها. بعدها بدأت تأكل المارشميللو.

عندما تريد شرابًا تمد يدها نحو زجاجة التوت فأناولها إياها. هاك ما تفعله تاليًا. تحك الزجاجة من رأسها بقوة بكفها ثم تضعها في فمها. ترجع رأسها للوراء وتتجرع الشراب كالمجنونة مصدرةً مئات الأصوات وفتات الحلوى يتطاير من فمها إلى داخل شراب التوت. تبعد الزجاجة عن فمها وتحكها مجددًا، وتسألني وهي تتجشأ:

- أتريدين رشفة؟

- لا، شكرًا.

تمرر الزجاجة إليّ مجددًا وتسحب شيئًا آخر من الوليمة، بينما تعود لقراءة المجلة. أحيانًا تستلقي على العشب وتحمل المجلة فوق رأسها. عندها أرى ما بداخل فمها.

تأكل "بريدجت" بفمٍ مفتوحٍ عن آخره دون أن تتحدث، فهي مشغولة بالقراءة. وعلى كل حال إن فمها مليءٌ بالمارشميللو السميك الزهري والمقرمشات الحادة وقطع الشوكولاتة السوداء، كل هذا يتحرك في فمها.

أشعر وكأني أقوم بواجبٍ مدرسي. من الصعب التفكير في شيءٍ ممتعٍ لأقوله إلى "بريدجت بيرس"، شيءٍ يجعلها ترفع نظرها عن المجلة. كل ما تقوله "بريدجت" هو: "إممم، إممم، نعم، نعم، إممم"، أو قد لا تكلف نفسها عناء الرد أصلًا، بل تهز كتفيها قليلًا وحسب. سألتها:

- أتريدين العيش في أحد تلك المنازل يا "بريدجت".

(تهز كتفيها).

- أتشاهدين مسلسل "الهارب" يا "بريدجت"؟

- إممم.

- أتظنينهم سيمسكون به؟

- ربما.

- ما رأيك بالصف الخامس يا "بريدجت"؟ أتظنينه ذا فائدة؟

(تهز كتفيها).

- أظنه لا بأس به. إنه أفضل من الرابع بأي حال. علام ستحصلين في الكريسماس؟

- لا أعرف.

- أظن أن ثوبك ليوم "سر التثبيت" كان جميلًا.

- إممم.

- أظنه الأفضل في صفنا.

- نعم.

حدَّقتُ في فم "بريدجت" المفتوح وتذكرت غسَّالة "أليس" الجديد. إنها موجودة في غرفةٍ خاصة في المنزل للثياب فقط، جميعها مطويةٌ وموضوعةٌ على الأرفف. وهناك ترابيزةٌ جميلةٌ للكي في مكانها الخاص، ونافذةٌ مستديرةٌ أمام الغسَّالة. كل الثياب بمختلف الألوان تدور صعودًا ونزولًا و...

فجأة قالت "بريدجت" شيئًا! لم أسمعها فسألتها:

- عفوًا يا "بريدجت"، ماذا قلتِ؟

- قلت، هل رأيتِ عمتي "بيرل" من قبل؟

- ليس حقًا، فقط في الكنيسة يوم "سر التثبيت". بدت لطيفة.

- لا بأس بها على ما أظن. لكنها ليست عمتي الحقيقية.

- من هي إذًا؟

- لا أعرف. لكن انظري، لقد أعطتني هذا الخاتم.

- هذا جميل.

- صحيح.

- إنها دومًا تعطيني الأشياء.

- حقًا؟

- حقًا، حتى إنها أعطتني تلك السترة الصوفية زهرية اللون. أما زال هناك عصير توت؟

- لا، لقد نفد.

- كنت أعرف أنه علينا شراء زجاجتين.

- ما زلت أملك بعض المال. أنذهب إلى محل "هيتشكوك"؟

- لا، لا بأس. أنا ممتلئة تمامًا بأي حال، كما أني أتجمد من البرد.

- أتريدين معطفي؟

- لا، أظن أني سأعود إلى المنزل وحسب.

- المنزل؟

- نعم. ألن تأكلي شوكولاتة "توبليرون" المثلثة؟

بعد ذلك شعرت بألمٍ في معدتي بسبب كل الحلوى التي أكلتها وبسبب تفكيري في عائلتي الجالسة في صالة منزلنا. وجوههم نظيفة، وشعرهم ممشط، ومعاطفهم مزررة حتى الأعناق. "ديرديري" ترتدي أكثر جواربها بياضًا لتجرب حذاءها الجديد من متجر "كريبس". "براين" يرتدي الشورت الجميل ويمسك بعربة الأطفال وبداخلها يجلس "لوكي" بحفَّاضته المرنة. "جيني"

تقف ثابتة عند الزاوية. البصل والجزر تم تقشيرهما ووضعهم على لوح التجفيف بانتظار اللحم لنصنع الشوربة. تنظر أمي من النافذة كل بضع دقائق ثم تذهب إلى البوابة وتستند عليها لتنظر إلى الطريق مطولًا. خطوتها تصبح أسرع في كل مرة، ويداها تصبحان عصبية، تمامًا كما يحدث عندما تهتاج. أمَّا وجهها فيزداد احمرارًا...

سألت "بريدجت":

- أتأتين معي إلى المنزل؟

- لماذا؟

- أعني.. لإخبار أمي.

- عن ماذا؟

- أظنني في مشكلة.

- لماذا؟

- قد أكون كذلك وحسب.

- أنتِ لم تسرقي ذلك المال، صحيح؟

- كلَّا، لم أفعل. لكن...

- لكن ماذا؟

- لم يكن من المفترض أن أصرفه، لذا سأقول إني فقدته في الطريق وطلبت مساعدتك في البحث عنه. أرجوكِ، سأعطيكِ كل الفكة التي تبقت. أرجوكِ.

- لا أشعر برغبةٍ في ذلك، أنا خائفة.

- أرجوكِ.

- لا، لا أريد.

- أرجوكِ، أنا أترجاكِ يا "بريدجت"، أترجاكِ. لن أخبر أي شخصٍ أي أن والدك يدعوكِ "بيزي".

- اخرسي، إنه لا يفعل.

- أعلم أنه لا يفعل. أنا فقط أقول إنه في حال فعل يومًا ما لن أخبر أحدًا.

- اخرسي وإلا لكمتك، أتسمعين؟ سألكمك!

رفعت "بريدجت" قبضتها قرب وجهها وهزتها مرتين ثم رحلت بسرعة وتركتني وحيدة.

أنا وحيدةٌ تمامًا. أرغب في البكاء، أو الركض عبر الشارع بسرعة فيصدمني شيئًا ما وأموت. أو ربما يتم خطفي، لكن إذا عرضت عليَّ سيدة غريبة تبدو خطيرة بعض الحلوى لن أتمكن من أكلها فأنا ممتلئة. أو يمكنني أن أفقد الوعي وأصدم رأسي بالأرض فأفقد الذاكرة وأنسى من أنا وماذا حدث لثمن اللحم أو حتى اللحم نفسه. لكن عندئذٍ عادت "بريدجت" مجددًا، وقالت:

- من الأفضل ألا تعنفني، فأنا لا أتحمل أن تعنفني أمهات الناس.

- لا، إنها لا تعنف أبدًا. إنها طيبة حقًا.

- حسنًا، ممَ أنتِ خائفة؟

- لا أعرف.

تنهدت "بريدجت" ومدت يدها لتأخذ الفكة. وقالت:

- حسنًا إذًا. ماذا عليَّ أن أقول مجددًا؟

لكن لا يهم ما عليها أن تقول مجددًا. ولا يهم كم مرةٍ تدربنا على جانب الطريق قبل أن ندخل. لأن "بريدجت" لن تقوله بأي حال وأمي لن تسمع. فتحت أمي الباب ومدت يدها لتجذبني إلى الداخل وهي تسأل:

- أين كنتِ؟ أين كنتِ؟

ثم رأت "بريدجت" فسألت:

- من تلك الصغيرة؟ من أنتِ؟

- أنا؟ زميلتها في الفصل.

- ماذا تفعلين هنا؟

- أنا؟ حسنًا لقد طلبتني لأن خالتها أرسلت لها مالًا من أمريكا.

- ماذا؟

قالت "بريدجت" وهي تتراجع بعيدًا عن الباب:

- خالتها، وسألتني إن رغبت في...

- ماذا فعلتِ بالمال؟

- أنا؟ لم ألمسه. هي من أنفقته في محل "هيتشكوك". لم تكن غلطتي. قالت لي عن خالتها، قالت لي. أقسم أنها ليست غلطتي، أقسم بالكتاب المقدس. يمكنكِ سؤال أبي إن شئتِ لأن أمي...

- ما اسمكِ؟

- "بريدجت".

- حسنًا يا "بريدجت". خذي بنصيحتي وابتعدي عن تلك الفتاة، أتسمعيني؟ ابتعدي عنها. إنها مريضةٌ بالكذب، مريضةٌ بالكذ...

- ماذا؟

- عودي لمنزلك.

أغلقت أمي الباب بعنف في وجه "بريدجت بيرس".

قبل إغلاق الباب رأيت سترة "بريدجت بيرس" الصوفية الزهرية تتراجع نحو الشارع. بعدما صفقت أمي الباب. ما زلت أرى "سترة بريدجت" من

خلال الزجاج المعتمة المموج. بدت أشبه بفقاقيعٍ صغيرةٍ زهرية. ظهرت من خلال كـل نافـذة في واجهة المنزل. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة ثم اختفت بعيدًا.

قلت لأمي:

- آسفة يا أمي. أنا آسفة حقًا. لن أكررها ثانيةً. أقسم لك.

لكن أمي لا تهتم ما إذا كنت آسفة أم لا.

جذبتني أمي من شعري عبر غرفة المعيشة، فظللت أصرخ:

- شعري يا أمي، شعري! ستسقطينه! شعري!

تركت أمي شعري وطوحتني على الأرض. صدمتني الأرض بشدةٍ في معـدتي. تهيجـت أذنيٍّ وشعرت بالصدى، لكني ما زلت أسمع صوت أمي تصيح.

لم يكن كل ما قالته منطقيًا. قالت الكثير من السباب الذي ستحبه "بولين"، وقالت كلماتٍ أخرى لم أفهمها. إنه هراء، أمي تقول هراء.

لكن الصفات التي نعتتني بها كانت واضحةً كفاية:

- كاذبة، حقيرة. كيف تجرؤين؟ أيتها القبيحة التافهة. أنتِ كاذبةٌ حقيرة. أنتِ كاذبةٌ مثـل ذلك الوغد، يا لكِ من قبيحة. أيتها الحقيرة التافهة. سأقتلك، أتسمعينني؟ سأقتلك!

صدقت أمي حين قالت ذلك. لأنني شعرت عندها بالهواء يخرج مني.. فوووش!، وتذكرت عندما أنفخ كيسًا ثم أضعه على الأرض وأسحقه بسرعة. فوووش!

حاولت أن أقول: "ظهري يـا أمـي! ظهـري! أنـتِ تؤذينـه بـشدة يـا أمـي. أنـتِ تـسحقين ظهري!".

لكن صوتي لم يخرج، لأن الهواء خرج مني.

مـا زلـت أمـي تـصيح بـصوتٍ عـالٍ. عـلى الأرجـح لـن تـسمعني بـأي حـال. لكن عندها عرفت أني مخطئة بشأن سـحق أمـي لظهـري. إنهـا ليـست أمـي بـل

المكنسة. أمي تضربني بالمكنسة على ظهري. تمسكها بذراعيها عن وسعهما وترفعها لأعلى ثم تضرب بعنف. ركبتاها عند أردافي، لكنها لا تدوس عليها. أمي لا تدهسني، بل المكنسة تفعل. إنها المكنسة.

بدت الغرفة واسعةً من حولي، واسعة كقاعة الاجتماعات في المدرسة. حاولت الاستماع إلى أي صوت يعقب صوت أمي لأرى إن كان هناك من يدافع عني، إن كان هناك من يقول: "اتركيها وشأنها، اتركيها وشأنها وإلا أخبرت أبي بما فعلته. سأخبر أبي".

لكن لم أسمع شيئًا سوى همهمات "ديرديري" تحاول الاختباء خلف الكنبة، والشهيق الباكي لـ"براين" في زاويةٍ بعيدة، وصوت بابٍ يغلق بنعومة وأمي تقول:

- كاذبة. حقيرة. كاذبة. قبيحة.

- أمي...

- لعينة تافهة.

- أمي، أظنني...

- قبيحة.

- أمي، سوف...

- قبيحة. تافهة. كذابة.

- أمي، سأتقيأ. سأتقيأ. سأتقيأ يا أمي.

***

متى يأتي الخلاف الكبير الثاني؟ متى يتصالحان مجددًا؟

تقول "جيني" إنه لا فائدة من الانتظار لأن الفواصل بين النزاعات صارت قصيرة للغاية. مما يعني أن دورة النزاع تعيد نفسها والنزاع الكبير الأول التالي

يأتي سريعًا جدًا، ولن نعرف ما إن كان يُحتسب النزاع الثالث أم الأول. وبحسب ما أرى فالنزاعات الكبيرة الثانية لم تشكل فرقًا على الإطلاق.

تقول "جيني":

- من الأفضل ألا تحسبي أصلًا. بل عليكِ إيجاد بقعةٍ مظلمة، مثل زاوية أو تحت الأغطية لو كنا في منتصف الليل. ثم تغطين أذنيكِ بوسادة، وتغلقين عينيكِ بقوة، وتبدئين في السباب.

- السباب؟

- نعم، قولي أسوأ السباب الذي سمعته في حياتك، ربما في بار ما أو من سكران قذر في السباقات. وإن حركتِ رأسك يمينًا ويسارًا وتمسكتِ بالوسادة بثبات سينهمر السباب داخل عقلك ويملؤه عن آخره حتى فتحات أذنيكِ. وبالتالي لن تدخل أصواتٌ أخرى. لا أصوات ولا كلام ولا نزاع. عندها من يهتم برقم النزاع أو أي فرقٍ يحدثه؟

لكني ما زلت أنتظر النزاع الكبير الثاني فقط بسببه تأثيره ووقعه وما يبدو عليه وكيفية سيره. ما زلت أنتظر.

ليس شرطًا أن يحدث في منتصف الليل مثل النزاع الكبير الأول، بل قد يحدث في أي وقتٍ يشاء. أحيانًا أعلم بقدومه لأني أشعر باقترابه.

لكن أحيانًا أخرى يحدث فجأة.

حين يساعدني أبي في أداء واجباتي المدرسية يبسط كفه على المائدة، بينما يميل على كتفي. عندها أشتم رائحة أنفاسه المليئة بالبصل والبيرة والنعناع والخردل جميعها مختلطةً في نفسه الدافئ.

ثم بدأ يعلمني طريقة التلخيص بالنقاط أي عناصر الحديث.

يعتقد أبي أنه على الجميع تعلم طريقة التلخيص بالنقاط لأننا نستخدمها في جميع المجالات وليس فقط في الواجب المدرسي. إنها طريقة لجعل الناس يصغون إليك ليفهموا ما تحاول قوله بالضبط.

سألني:

- أفهمتِ؟

- نوعًا ما...

- حسنًا إذًا. الآن، افترضي أن المعلمة أعطتكِ سؤالًا عن قصيدةٍ أو قصة. عندئذٍ بدلًا من تقليب الصفحات بحثًا عن أفكار يمكنك فقط التفكير جديًا في قصد السؤال. بعد ذلك تقرئينه مجددًا وتنتبهين لأول ما يطرأ في ذهنك. بعدها كل ما عليكِ فعله هو كتابة شيءٍ مثل: "في رأيي أنه يمكن تلخيص تلك القصيدة كالتالي: أ)- إلخ إلخ (أول خاطرة على بالك). ب)- إلخ إلخ (ثاني خاطرة). وهكذا إلى تنهي أفكارك فتعرفين أنكِ غطيتِ جميع النقاط.

صوت إلخ إلخ بدا غريبًا حين يقوله، لكنه يفي بالغرض. أبي يعلمني وضع الأقواس جوار الترقيم الأبجدي.

لكن أمي لم تظن أن ما نفعله لطيف. تأتي للمطبخ وتعد لنفسها كوبًا من الشاي بعد عودتها من وسط البلدة لشراء الملابس من أجل الكريسماس. تظن أمي أن ما نفعله سخافة. يتردد صوتها وهي تقول: "سحقًا لتلك السخافة، سحقًا للسخافة. هاه!".

يرفع أبي رأسه للحظة ثم يخفضها مجددًا، ويقول لي بطرف فمه:

- سنتجاهلها الآن، سنتجاهلها. حسنًا؟

لكن عندها تصدر ضحكة أخرى من المطبخ فيرفع رأسه مجددًا ويصيح بها:

- ألديكِ ما تقولينه؟ ألديكِ؟ لأنه لو لديكِ يمكنك المجيء وقوله بدلًا من مقاطعتنا من جحركِ كالفأر.

أتت أمي من المطبخ واستندت إلى الجدار بمعطفها المفتوح وحذائها ذي الكعب العالي الجميل، وقالت:

- لو أني فأرٌ في جحر فمن وضعني هناك؟ من؟ أنا أحيا في ذلك الكوخ الحقير، بينما أنت تشرب الخمر وتقامر على فريق آيرلندا. أحيا في هذا...

- وأنتِ لا تقصرين في مسألة الخمر أيضًا. لا يوجد ما تخجلين منه بهذا الخصوص. دعيني أخبركِ بذلك يا عزيزتي.

- عمَ تتحدث الآن؟

- عن شيءٍ واحدٍ بكل تأكيد، فعيناكِ لا تبرقان هكذا فقط لأنك تجولتِ في متجر "كليريز" بحثًا عن التخفيضات.

نزعت أمي وشاحها ووضعته في جيبها. وجهها بني اللون من مساحيق التجميل، وشفتاها مطليتان باللون الأحمر الزهري، وترتدي معطفًا أسود جديد. هزت شعرها وطرفت عيناها ببطءٍ وفي وقتٍ طويلٍ نسبيًا كعيني دمية، ثم قالت:

- أنت فظيعٌ حقًا. ما هذا التخريف الذي تقوله! وما ذلك الأسلوب الذي تتحدث به إلى الطفلة؟! يبدو أشبه بالعواء.

أرجعت ذراعيها للخلف وانزلق معطفها عبر معصميها. بدا أبي غير قادرٍ على التفكير في شيءٍ يقوله. ظل يحدق ويحدق في معطفها الأسود بفمٍ مفتوح.

ألقت معطفها على الكنبة وعادت تستند إلى الجدار. وضعت إحدى يديها على وركها، واليد الأخرى تلوّح بها في الهواء. عيناها تبرقان، بدت أشبه بشكلها حين تغني. وقالت:

- أعني أني لم أسمع ما يشبهه من قبل في حياتي، خاصة أسلوب هجائك. هاه! وكأن المعلمة لن تدرك أنه أنت. أعني، أتظنها مغفلة؟ بالطبع تفعل. أنت تظن أن الجميع مغفلٌ سواك. لكن أتظن حقًا أن المعلمة ستصدق...

قمت ببطء من على الكرسي وانزلقت خلف أبي. سرت بهدوء شيئًا فشيئًا نحو الباب المؤدي إلى الصالة. جذبت المقبض وفتحته ببطء ثم خرجت إلى الصالة. أغلقت الباب خلفي.

قالت أمي:

- إنها طفلةٌ في التاسعة من عمرها! طفلة في التاسعة! أتظن المعلمة ستصدق أن طفلةً في التاسعة تعرف كلمة "تلخيص". هذا يضحكني، إنه فقط يضحكني...

- ألا تظنين أنها ستعرف كلمة مثل "تلخيص"؟

- مثيرٌ للشفقة.

- ألا تظنين ذلك؟

- لا.

- حسنًا اسأليها إذًا. اسأليها! لِمَ لا تفعلين؟ لأنها صارت تعرفها الآن. صارت تعرفها الآن بحق الجحيم!

يا للجنون، لقد حان وقت النزاع الكبير الثاني.

***

الأزهار. البلدة. الملابس. مرح! مرح! مرح! أحذيةٌ جديدة، حقيبةٌ جديدة، معطفٌ جديد، بذلةٌ جديدة، ثوب جديد، ملابس داخلية جديدة، قبعةٌ جديدة.

سألت أمي:

- من سيهتم بنا حين تذهبين للسباقات يا أمي؟

- لن أذهب إلى أي سباقات.

- لكن أبي دومًا يأخذكِ إلى السباقات حين يشتري لكِ ملابس جديدة. هل ستتغيبين في عطلة نهاية الأسبوع بدلًا عن ذلك؟

- لن أذهب إلى أي مكان.

- أمي، ما بكِ؟

- لا شيء. هناك شيءٌ عالقٌ في عيني، هذا كل شيء. اسمعي، أتذكرين حين سرقتِ ثمن اللحم منذ بضعة أسابيع؟

- نعم يا أمي. أنا آسفة.

- أنتِ لم تخبري والدك بأي شيءٍ، صحيح؟

- كلَّا يا أمي. لماذا؟ هل فعلتِ أنتِ؟ هل أخبرتِ أبي بشأني؟

- لا. اهدئي! كنت أتساءل وحسب، هذا كل شيء.

- لم أخبره يا أمي. أقسم لكِ، لم أفعل.

- ولا أنا.

إذًا كيف عرف أبي؟

ما جعلها تعرف أن أبي يعرف بما حدث، يمكن تلخيصه في التالي: أ)- إنه لا يتحدث مع أمي مجددًا، ب)- بدأ يصطحبني معه إلى كل مكان وهو ينظر إليَّ بجانب عينيه، ج)- ظل يسألني ما إذا كنت بخير، د)- يريد إرسالي بعيدًا. قلت له:

- أرجوك يا أبي لا ترسلني بعيدًا؟ سأكون فتاةً مطيعةً في المستقبل. أقسم على ذلك. أرجوك.

كان يجلس على طرف السرير يتحدث إليَّ مثلما يفعل الآباء في التليفزيون. حتى أنه طرق على الباب أولًا واستأذن في الدخول. قال:

- لا أحد يعاقبك. أنا أصنع لكِ معروفًا، عليكِ معرفة ذلك.

- لكن يا أبي...

- انظري، إنها مجرد مدرسة، هذا كل ما في الأمر. الفرق الوحيد هو أنكِ تنامين هناك. إنها مدرسةً داخلية، مثل التي في أحد كتبك. ما كان اسمها؟

- أتعني "ميلوري تاورز"؟

- هذا صحيح، "ميلوري تاورز". هلا توقفتِ عن البكاء، ها هي فتاتي المطيعة. تعرفين أباكِ جيدًا، أنا أريد الأفضل لكِ. مئات الفتيات يفضلن فرصة الذهاب. ولنتحدث بصراحة، أنتِ لستِ في غاية السعادة في تلك المدرسة القديمة التي تذهبين إليها.

- هل لأنني أسأت التعامل مع أمي؟

- لا، أخبرتكِ أن الأمر ليس هكذا.

- بأي حال، قد لا تسمح لي أمي بالذهاب. إنها لم تسمح لـ"ديرديري" بالذهاب حين...

- القرار ليس لوالدتكِ، والأمر مختلفٌ هنا. ستحظين بالكثير من الصديقات، وستمتلكين غرفتكِ الخاصة الصغيرة، وستركبين الخيل وتلعبين التنس، و...

- كيف تعرف أني سأحظى بصديقات؟

- لأنكن جميعًا ستعشن معًا مثل الأخوات.

- لكن أحيانًا حتى الأخوات لا يحببن بعضهن.

- صحيح، لكن سيكون هناك المئات من الفتيان. منطقيًا يمكنك مصادقة واحدةٍ أو اثنتين.

- متى عليَّ الذهاب؟

- خير البر عاجله. ستبلغين العاشرة بعد بضعة أيام، يمكنك الذهاب بعد ذلك.

- لكن الصف الخامس قد بدأ بالفعل يا أبي. الفصل الدراسي الأول يكاد ينتهي.

- أعرف. لكن هذا لا يهم.. يمكنك الذهاب متأخرة.

- ألن يمانعوا؟

- لا، بالطبع لن يمانعوا. ما رأيك؟

- لا أعرف. ما رأيك يا أبي؟

- أريدكِ أن تفعلي ما تريدين.

- لكني لا أعرف ما أريد.

- حسنًا، هذا يكفي الآن. فكري في الأمر وبلغيني قرارك.

وقف وربت على السرير وكأنه كلب.

***

ما حدث بعد ذلك هو أن أمي صارت حاملًا. اكتشفتُ ذلك يوم عيد ميلادي قبل بضعة أيام من ذهابي إلى مدرستي الجديدة. قرأتها في إحدى الملحوظات الموجودة على مائدة المطبخ. تُستخدم الملحوظات حينما يتخاصم والداي. ملاحظات أمي لأبي تكون غالبًا عن رسائل التليفون أو طلب المال. ملاحظات أبي لأمي تكون غالبًا عن شيء تكتبه على الآلة الكاتبة أو لإخبارها عمّا تقول إذا طلبه أحدهم في التليفون. كلمة غالبًا تعني طوال الوقت.

كتابة أبي طويلة وضيقة وتميل للأمام.

كتابة أمي مستديرة وقصيرة وتميل إلى الجانب الآخر.

تقول الملاحظة: "أنا حامل مجددًا. آمل أنك راضٍ الآن. آمل أنك سعيد بحق الجحيم".

الكثير من أوراق تغليف الهدايا منتشرة على السرير بأكمله. صناديق كبيرة، وأكياس مشتريات عليها أسماء المحلات. لم أمتلك قط كل هذا الأشياء في حياتي. أشعر وكأنني فتاة في الإعلانات أو أني أمي بعد جولة للتسوق.

يقول أبي إن الأمر أشبه بتحميل سفينة نوح ومحاولة ملئها بزوجين من هذا وزوجين من ذاك، وكلما أحضرنا شيئًا قمنا بـ"تيك، تيك، تيك" إزالته من القائمة.

قال إنه سيعود بعد ساعةٍ ليوصلني إلى مدرستي الجديدة.

تدخل أمي مع خروج أبي. يرن التليفون في غرفة نوم أبي، يمكنها سماع خطواته قادمةً نحوها.

لوهلةٍ ظلَّت أمي هادئةً وهي تقف وسط الغرفة وتنظر إلى الأغراض حولها. ثم مدت يدها وكأنها تفكر في لمس شيء. وفجأة انتزعت القائمة من يدي قائلة:

- أعطني تلك القائمة اللعينة!

أولًا كانت تتمتم لنفسها معنفةً أبي لأنه اشترى الأغراض الخاطئة. في اللحظة التالية فقدت أعصابها والتقطت المعطف الجبردين وأطلقت سبّة ثم رمته إلى الحائط.

- إنه خرقةٌ بالية، إنه كذلك! خرقةٌ باليةٌ لعينة، هكذا هو! انظري إلى تلك الأحذية طويلة الرقبة المضادة للمطر. إنها فضية، يا إلهي! ستكونين أضحوكة، وكأنكِ لستِ سيئة بما فيه الكفاية. وما هذا بالضبط؟

- إنها حقيبة الغسيل الخاصة بي.

- حقيبة الغسيل؟! حقيبة الغسيل؟! أيمكنكِ إخباري كيف ستتسع تلك الحقيبة الصغيرة التافهة لكل تلك الأغراض؟ أيتها الغبية البلهاء.

ألقت بالحذاء نحو الحائط ونزعت حقيبة الغسيل من يدي. ثم جذبت حقيبة اليد الصغيرة من على كومة الأشياء التي على السرير وقالت:

- يا إلهي، يا للهول، لا أصدق ذلك! من أين أحضرتِ هذه؟

- من متجر "أرنوتس" كي أضع فيها المال. إنها على القائمة.

- من اختارها؟

- أنا. قال أبي إنه يمكنني ذلك.

- أوه، أنا واثقة من أنه فعل.

فتحت أمي حقيبة اليد وأمسكت تيكيت السعر.

- يا إلهي! هناك أناسٌ يجنون أقل من ذلك في الأسبوع، في الأسبوع الكامل. لا أمانع لكنها ستضيع خلال يومٍ واحد. كيف تفكرين؟ كيف تفكرين؟

- لا أعرف يا أمي.

- إنها مقززة، إنها كذلك. إنها مقززة!

ثم طوَّحت حقيبة اليد عبر الغرفة لترتطم بالدولاب.

- أرجوكِ يا أمي.

- لا تعارضيني! انظري إلى حقيبة السفر تلك. لا يمكنك حتى حزم أمتعتك جيدًا، بل تحشرين كل شيء بأي طريقة كانت. ألا تعرفين حتى كيف تطوين الأشياء؟ أوه، أرى أنك تتولين الأمور جيدًا بنفسك. أرى هذا بوضوح!

قلبت الحقيبة وتناثرت الثياب على الأرض. ثم عادت للمعطف الجبردين والتقطته عن الأرض ورمته في وجهي. تطاير الحزام وصدمتني حليته في فكي.

- آآآه هذا مؤلمٌ يا أمي.

فجأة توقفت أمي.

ركعت على الأرض، واحتضنتني بقوة جعلتني عاجزةً عن التنفس أو تحريك ذراعيِّ المثبتين على جانبيِّ. قالت باكية:

- طفلتي، سيبعد طفلتي عني، سيأخذ طفلتي مني.

لم أعرف ماذا أفعل. كنت أفكر في أي الأمور أسوأ: غضب أمي أم بعثرة الأشياء في الغرفة أم الحضن الخانق وبكاء أمي عليَّ.

حدقت بالحائط في انتظار ما سيحدث لاحقًا.

رن التليفون واقتربت خطوات أبي عائدةً إلينا.

عندئذٍ بدأت أمي تصرخ به قائلة: "أنت وغدٌ قذر! هذا ما أنت عليه. يا لك من وغدٍ قذر!".

اقتربت خطوات أبي أكثر ناحية غرفة المعيشة. سمعنا صوت باب غرفة المعيشة وهو يُغلق بقوة خلفه.

جرت أمي وراءه.

ظلت تصرخ بالكلام نفسه. جرت خلفه عبر المنزل، إلى الصالة، وحتى الباب الأمامي وصولًا إلى سيارته التي جلس بداخلها. ظلت تصرخ: "وغدٌ قذر! وغدٌ قذر، وغد!".

انتظرت قليلًا لأرى إن كانت أمي ستعود. لكن هذا لم يحدث، لذا خرجت إلى الحديقة الخلفية وسألت "جيني" المساعدة. كانت تجلس على الأرجوحة الصدئة وتلعب في الحبوب التي على يديها. الحديقة باردة، والجليد متجمعٌ على العشب الطويل، وقدما "جيني" العاريتان لونهما أرجواني من البرودة. سألتها:

- أين حذاؤك يا "جيني"؟

- في المنزل.

- لماذا؟

- لم أردها أن تسمعني وأنا أتسلل للخارج.

- ستمرضين.

مصت "جيني" الدم الذي سال من حبَّاية بيدها وقالت:

- جيِّد.

تأرجحت بينما تحتك قدماها العاريتان بالعشب الطويل المتجمد، وترجع رأسها للخلف فلا أرى وجهها.

- أرجوكِ يا "جيني"، هل تساعدينني في حزم أمتعتي؟

- افعلي ذلك بنفسك أيتها الثرثارة.

- لمَ تناديني بذلك؟

- لأنكِ ثرثارةٌ كبيرة. أراهن أنكِ أخبرته عمَّا حدث.

- لم أفعل. أقسم أني لم أفعل. لمَ أخبره أصلًا؟ سأقع في المشكلات لأني سرقت ثمن اللحم.

- أراهن أنكِ فعلتِ. أراهن أنكِ أريتيه آثار الضرب على ظهرك.

- لم أفعل.

- ولا ألوم أمي لأنها ضربتك أيضًا. إنها غلطتك. غلطتك الكبيرة. لكن ما كان عليكِ الوشاية بها.

- لم أشِ بها، لم أفعل.

- أنتِ مثيرةٌ للمتاعب، وثرثارةٌ تختلق القصص، وجشعةٌ حقيرة. أنتِ وتلك الغبية "بريدجت بيرس". أكرهكما. أنتِ أكثر من أكره.

- لن أستمع إليكِ.

توقفت "جيني" عن الأرجحة، ثم رفعت رأسها وأنزلت قدميها على الأرض. نظرت إليَّ من أعلى لأسفل. سألتها:

- ماذا؟

- يا إلهي، ذلك الزي يبدو سخيفًا عليكِ. تبدين أشبه بـ...

- ماذا؟

- ببقعةٍ زرقاء كبيرة. يا إلهي، هذا مقزز. أشعر بالغثيان بمجرد النظر إليكِ.

- قلت لن أستمع إليكِ.

- أراهن أن تلك المدرسة ليست كـ"مالوري تاورز" على الإطلاق. أراهن أنها كسجنٍ للكاذبات والسارقات. إنها سجن للفتيات، هذا ما ستكون عليه.

- لن تكون كذلك! لن تكون كذلك!

- على أي حال سيرسلك أبي لأنه فقط يريد التخلص منكِ لأنك مثيرةٌ للمتاعب وثرثارةٌ حقيرة. الجميع يعلم أن الوالدين يرسلان أبناءهما للمدارس الداخلية للتخلص منهم. أوتعلمين ماذا؟ أنا سعيدةٌ لأنكِ ذاهبة. أرجو ألا تعودي أبدًا. أرجو ألا أراكِ مجددًا. أوتعلمين ماذا أرجو أيضًا؟

- ماذا؟

- أرجو...

- ماذا؟

لكن "جيني" لم تكمل حديثها، فهي تبكي الآن. شعرها الطويل المجعَّد يُغطِّي وجهها بالكامل. من الغريب رؤية "جيني" تبكي، لأنها تبكي فقط عندما لا تزول الحبوب التي بيديها.

- "جيني"؟ ما الأمر يا "جيني"؟

- لا تفعلي.

- لا أفعل ماذا؟

- لا تتركيني هنا.

- اطلبي من أبي أن تأتي معي.

- لقد فعلت.

- و؟

- لا، قال لا. لأني قد أمرض والراهبات قد لا يستطعن...

- "جيني" أنا آسفة.

- لا تتركيني وحدي. ليس هنا. وحدي.

***

إليكم كيف وقعت أمي في حب أبي. تقابلا في حفل راقص في كازينو على البحر. رقصت معه فقط بسبب رهانٍ مع صديقاتها، لأنه بدا قديم الطراز نوعًا ما. قادها إلى المنزل في سيارته السوداء الكبيرة. شعرت بنوع من الخجل في البداية لأنه كان يكبرها في السن، ولم تعرف ما عليها قوله. لكن هذا لم يهم حقًا لأن أبي ظل يتحدث بأي حال. عندما أوصلها لمنزلها، لم يكن معها ولاعة لتشعل سيجارتها، كذلك لم يجد أبي ولاعته، لذا خرج من السيَّارة، وفتح الغطاء الأمامي "الكابُّوت"، وأخرج سلكين من الموتور وأخذ يلمسهما ببعض. ثم أخفض رأسه وأشعل السيجارة بالشرارة التي نتجت عن تلامس السلكين. ظنَّت أمي أن هذا أذكى تصرف رأته في حياتها. "مبتكر" كانت الكلمة التي استخدمتها، مبتكر.

والآن إليكم كيف وقع أبي في حب أمي. خرج معها بضع مرات، رآها إنسانة لطيفة. ذات يوم بينما كان يقود سيارته، رآها بالصدفة. كان مرهقًا للغاية من العمل ومن السهر للعب الورق، والصداع بسبب شرب الكثير من الويسكي في الليلة السابقة، إضافة إلى خسارته في المراهنة طوال أسبوع. كانت الأشجار عاريةً والضباب يملأ الشارع. كانت ترتدي ثوبًا أصفر.

1972



عندما أكون في المدرسة أفكر في المنزل. أفكر في شكل نار المـدفأة وخيالهـا يتحـرك بجنـون على الحائط في الشتاء. أو حين أستلقي على بطني وأشاهد التليفزيون، منتظرة الـروائح الآتيـة مـن المطـبخ. أخمِّـن، هـذا لحـم الـضأن والبطـاطس المـشوية، والكرنـب، والبـازلاء الخـضراء المهروسة، ثم مرق "بيستو" الشهي الذي يحوِّل كل شيءٍ إلى اللون البني اللامع واللذيذ.

في المدرسة لا يوجد تليفزيون. ولا نعـرف مـاذا سـتكون وجبتنـا الرئيـسية إلا عنـدما يـأتي دورنا في الطابور للحصول عليها. أمّا إذا كانت بطاطس شيبسي، لأننـا نـسمع صـوت قرمـشتها من مؤخرة الطابور.

رائحة الممرات لا تتغيَّر، لذا لا فائدة من تخمين الطعام من رائحته. فدائمًا مـا أشـم رائعـة ملمِّع الخشب والبطاطس، ورائحة الديتول والجبن. أمَّا يوم الجمعـة فتنتـشر رائحـة الـسمك. حينها نعرف أننا سنأكل الـسمك ذلـك اليـوم. نعـرف جيـدًا كيـف سـتبدو الـسمكة، سـتكون برتقالية ومقززة ومثنية من الوسط بطريقة غريبـة، لكـن حالتهـا هـذه سـتسهِّل إخفاءهـا في الكم، كما أخبرتني الفتيات الكبريات.

عندما تخبئ فتاةٌ كبيرة سمكةً في كمها أشعر بالخوف عليها من أن تُمسك، أو أسوأ، إذا مـا أمسكتها المسؤولة وهي تلقي بالسمكة في المرحاض، أو وهي تطعمهـا للقـط الـذي لا يأكلهـا أحيانًا، بل يمسكها بفمه ويجري بها وكأنه سيحتفظ بها لوقتٍ لاحق.

بعد السمك، نتناول التفاح المسلوق، والكاسترد. ما كنت لأمانع تجربته في اليوم الأول، لولا أن من جلست بجانبي أخبرتني أنه مليءٌ ببصاق سيدة تعمل في المطبخ اسمها "ليديا"، السيدة ذات اللعاب.

السيدة التي تعمل في المطبخ أو تمسح الأرض يطلق عليها اسم "عاملة منزلية". أما إذا كانت راهبة، يُطلق عليها اسم "أخت". هيئة العاملة المنزلية تختلف عن باقي الراهبات. حيث تضع أشرطة أعلى ذراعيها كي تربط كميها، وترتدي مريلةً طويلة فوق ردائها. ويداها دائمًا متورمة.

أيدي الراهبات دومًا ناعمةٌ وبيضاء.

في المنزل لا أمانع إن شعرت بالجوع لأني أعلم أنه بعد قليلٍ سيمتلئ فمي بطعام أمي الشهي الذي يشعرني بالراحة. لكن في المدرسة أمانع بشدة لأني سأظل جائعة طوال اليوم. أمَّا اليوم الذي نخرج فيه مع الراهبات، حينها أبدو كالمجنونة وأنا أحشو فمي بالفشار والمارشميللو. ما أحلى الشعور بالعصارة الساخنة السميكة وهي تنزلق في حلقي.

أو إذا كان يوم الأحد، حيث آكل كيسًا كاملًا من شرائح الخبز المحمص "الفايش" مع الزبد والشاي.

أمسك طبقي وأرفعه أمامي. تضع الطبَّاخة الطعام بملعقة فضية كبيرة وكأنها قارب يعوم في حلَّة مليئة بماء دهني ساخن. كل ملعقةٍ فضيةٍ تدور وتدور. حتى وإن أجبرت نفسي على الأكل بسبب الجوع أعجز عن ذلك، لأن الفتيات الأخريات على المائدة يتقززن ويقلن لي: "لا تقولي أنكِ ستأكلين هذا".

الغرفة التي نأكل فيها تسمى "قاعة الطعام".

في المنزل يستغرق الأمر ثواني كي أنتقل من غرفةٍ لأخرى ودون سلالم. لكن في المدرسة، هناك الكثير من الغرف والأماكن التي تستغرق وقتًا طويلًا للتنقل بينها، وجميعها تحمل أسماءً غريبة، كما يوجد المئات من السلالم المختلفة.

بعض الأسماء أعرفها بالفعل لأني قرأت مثلها في "مالوري تـاورز". مثـل الغرفـة التـي ننـام فيها تسمى "عنبر النوم".

الفتيات الإسبانيات لا يمكنهن الحصول على مسكنٍ خاص، بـل علـيهن الاخـتلاط بـالجميع لأنهن لا يتوقفن عن الكلام. ولا يتعلمن الإنجليزية مطلقًا لأنهـن لا يـتكلمن سـوى بالإسـبانية مع بعضهن البعض. إنهـن الأكـثر غرابـة في المدرسـة. يقـبلن إبهـامهن حـين يبـاركن أنفـسهن، ويرتدين حجابًا جميلًا فـاخرًا أسـود اللـون في القـداس. أمَّـا حـين يتحـدثن معًـا تـشعر وكـأن مجموعة من البط ينعق بسرعةٍ كبيرة. كما أنهـن لا يـشاركن أحـدًا الـشوكولاتة الذائبـة التـي يفردنها على الخبز كالزبد الأسود أبدًا.

يوجد استوديو للرسم. الراهبة الفنانة التـي تعلمنـا رسـم الأشـجار تقـول إنـه قبـل رسـم الأشجار علينا أن نعرف أسـماءها أولًا. تأخـذنا إلى متنـزه "فينـيكس" وتجعلنـا نحـك جـذوعها المتجعدة ونلصق أنوفنا بأوراقها لنشمها. تقول إن لكل شجرةٍ شخصيتها، كل شـجرةٍ كالإنـسان المتفرد. بعدها علينا عمل قائمة بألوانها الجميلة كلها.

تقول إن اللونين الأخضر والبني، ليسا اللونين الوحيدين فقط، بل هناك الكثير والكثير مـن الألوان بالأشجار.

تتحمس كثيراً حين تتحدث عن الأشجار، تمتد يداها عاليًا إلى السماء وتلمع عيناهـا، حتـى أننا أحيانًا نخشى من أن تبدأ بالبكاء.

عندها تقف "أوليفيا باتلر" خلف الراهبة وتصنع تعبيرات غريبة بوجهها وتطرق بإصـبعها على جانب رأسها.

هناك قاعة الدراسة، حيث نقوم بعمل الواجبات، وقاعتان كبيرتـان للترفيـه عنـدما ننتهـي من تناول العشاء. القاعة البيضاء للعب أو الرقص الراقي. أمَّا القاعة البنية فلتعليـق رسـوماتنا للأشجار أو لتسلم الخطابات.

تقف رئيسة الطالبات على كرسي وتسحب الخطاب واحدًا تلو الآخر من كومة كبيرة. تقرأ الاسم ثم ترفع الخطاب عاليًا فنرى طوابع البريد اللامعة في طرفه لوهلة حتى تأتي صاحبته لتتسلمه.

الفتيات الآتيات من بلادٍ أخرى يحصلن على أفضل الخطابات، حيث يكون مزينًا بخطوطٍ زرقاء وحمراء على الأطراف. وهناك خطابات أخرى يجب فردها لأن الخطاب والظرف مكتوبان على قطعة الورق نفسها. الخطابات المكسيكية لديها ختمٌ من الشمع الأحمر يجب كسره بسكينٍ خاص. أمَّا الخطابات الأيرلندية تكون عاديةً للغاية.

لم تصل إليَّ أي خطابات.

هناك العديد من السلالم في كل مكان، بعضها واسعٌ وطويل يصل حتى خمس طوابق. يمكن أن ننزلق على الدرابزين بطول الطوابق الخمس. لكن يجب أن تكون الفتاة شجاعة ولا تصرخ بصوتٍ عالٍ حتى لا يسمعها أحد ويعاقبها.

هناك سلالمٌ أخرى صغيرةٌ ومظلمة موجودة خلف الكنيسة، هناك حيث تنام الراهبات الكبار. قالت فتاة تدعى "كاساندرا" أنني إذًا تسللت في منتصف الليل ونظرت من ثقوب المفاتيح في الأبواب سأراهن نيامًا وأفواههن الخالية من الأسنان مفتوحةً على آخرها، ورؤوسهن الصلعاء التي تشبه كرات الجولف مستلقيةً على وسائدٍ مصنوعةٍ من الأحجار السوداء.

السلالم الأضيق تصل إلى غرف الموسيقى. عندها نكون قد وصلنا إلى قمة المنزل، وهناك نافذة إذا خرجنا منها نصل للسطح ونشعر بالدوار. لكنها مُغلقة بالمسامير بسبب الشبح.

إنه شبح فتاةٍ كانت عاملة منزلية. ألقت نفسها من السطح لأنها اكتشفت أنها حاملٌ ولم تكن حتى متزوجة. قالت "جيسيكا ماكلاين" إن هذا أسوأ ما قد ترتكبه فتاة، وهو أن تحمل دون أن تكون متزوجة. هذا من الكبائر، وكذلك

الانتحار. تقول "جيسي" إن الكبائر هي ذنوبٌ بشعةٌ تجعل الرب يرسلك إلى الجحيم مهما كان مشفقًا عليك.

غرف الموسيقى مكانٌ مخيفٌ للغاية عندما يرسلك أحدهم برسالةٍ هناك وتضطر للسير عبر الممرات الطويلة وحدك على أطراف قدميك. حتى لو كنت أسفل السُلَّم وتنظر لأعلى وتستمع للأصوات الآتية من هناك سابحةً لأسفل، هذا مخيفٌ للغاية. كل تلك الأصوات المختلفة قد تكون صوت بكاء شبح طفل.

هناك صوت صراخٍ عالٍ قد يكون صوت أم الطفل.

ستلد أمي طفلًا جديدًا، لكن بعد شهورٍ من الآن. أمي لديها زوج، لذا فالطفل ليس خطيئة. لكن في كل مرة أرى السلالم المؤدية إلى غرف الموسيقى وأسمع كل الأصوات الصادرة أفكر بأمي وطفلها، وماذا لو ماتا وتحولا إلى شبحين. أين سيذهبان لو حدث ذلك؟

حين أكون في المدرسة أفكر في أبي وفي نكاته المرحة حين يقوم باختراع قافية لها، أو حين أذهب معه في سيارته إلى مكانٍ ما ويكون لي وحدي، أو حين أشاركه مع الجميع ونتكدس في السيارة.

مثل تلك المرة، عندما ذهبنا إلى البحر، ولم يتوقف المطر. اشترت أمي البطاطس شيبسي للجميع كي نأكلها في السيارة. بعد ذلك غنَّت أمي وأبي تلك الأغنية المضحكة معًا. كان هذا أكثر مرحًا من اللعب على الشاطئ بالجرادل والمجارف. كانت السيارة دافئة بسبب البخارٍ المشبع برائحة الخل، بينما نأكل البطاطس شيبسي وننظر من النافذة إلى الشاطئ والبحر الخاليين. جعل المطر لون الرمل بنيًّا داكنًا، وقطرات المطر كانت تخترق البحر صانعةً فجوات صغيرة للغاية. أخذت قطرات المطر تتساقط على سقف السيارة، وبدت أشبه بالماس وهي تصطدم بزجاج السيَّارة. وكل هذا المطر، والمطر، والمطر، والأغنية التي غنتها أمي وأبي.

أتذكر ذلك أحيانًا حين أحاول إجبار نفسي على النوم.

في المسكن يوجد لكل واحدةٍ منا ركنها الصغير الخاص. يوجد به حوض خاص بها، ودولابها الخاص، وكرسيها الجلدي الأخضر، والسرير جوار الحائط عليه ملاءات برتقالية ناعمة، ومفروشة على وسادةٍ ناعمةٍ وملفوفةٍ كإصبع السجق.

أحب ركني الصغير. أغراضي جميعها موضوعةٌ في مكانها لا يمسها أحد، لذا لا ينكسر شيء أو يضيع. أحب حين تأتي الراهبة العجوز للتفتيش. تمرر إصبعها الطويل على الترابيزة وتحت السرير وأعلى الدولاب والحواف. تبحث عن الغبار. أرى وجه الراهبة العجوز منعكسًا على الصنابير. تتحقق إذا كنا ثبتنا الملاءة في السرير وطوينا ثيابنا للصباح. هناك الزي الخاص وعليه رداء إضافي كي لا يتسخ، وهناك جوارب وأحذية نظيفة تحت الكراسي الجلدية الخضراء. كما أحب الطريقة البطيئة التي تريني بها الراهبة العجوز كيفية عمل كل شيء كي لا أنسى، ودومًا أجيد العمل مما يعني أني لا أقع في مشكلات معها.

كنت دومًا آخر من يذهب في النوم، أستمع إلى أصوات تنفس الفتيات الأخريات وأحاول تخمين من تصدر ذلك الشخير أو من تقلب صفحة الكتاب تحت الأغطية، ومن تملك راديو الترانزستور الذي يخرج صوته خافتًا من تحت الوسادة، وأصابع من التي تنقر على الحائط تماشيًا مع النغمة.

أنهض أحيانًا لأنظر من النافذة حتى تتعب عيناي وتعجز عن رؤية المزيد.

في شهري يناير وفبراير تكون النوافذ أشد عتمةً، تبدو كمرآة سوداء لامعة. أرى وجهي المنعكس، وهالات ضوء صغيرة آتية من مبنى الطالبات الأكبر سنًا.

في مارس تكون النوافذ رماديةً قبل حلول الظلام. تظلم السماء باكرًا يومًا بعد يوم. لكن عندنا يأتي عيد الفصح، يطول النهار، وتظل النافذة مضيئة.

النافذة في الركن الخاص بي تطل على منطقة صغيرة للزراعة. يمكنني سماع كل الحيوانات وهي نائمة، كما يمكنني سماع المزارع وهو يصفر حين

يحرث الساحة بشوكته وكأنه يحك طريقًا إسمنتيًّا كبيرًا. إن فتحت النافذة أشم رائحة بول البقر الأبيض السمين المشبع برائحة اللبن، أو الرائحة العفنة المقززة لبراز الخنازير.

في مبنى الطالبات الأكبر سنًا تبدو الفتيات أكثر بدانةً في أرديتهن الواسعة وهن يتحركن خلف النوافذ. أحيانًا يمكنني سماع أصواتهن الضاحكة، ثم أرى دخان السجائر الرمادي الذي يخرج من نافذة غرفة الجلوس.

لكن أفضل نافذة هي المجاورة للحمامات. يمكنني رؤية ما خلف السور الخارجي حتى متنزه "فينيكس". أحب الأشجار بالطريقة التي علمتنا إياها الراهبة الفنانة، بأشكالها المختلفة وألوانها التي تعد بالمئات. لكن حين يهبط الظلام تبدو جميعها بالشكل نفسه وبلونٍ واحدٍ فقط.

حين يهبط الظلام لا تظهر سوى ظلالها فقط.

أحيانًا أثناء الليل أسمع شخصًا يبكي. معظم البكاء أسمعه في ليالي الأحد أو في الليلة التي تلي الإجازة بالضبط. معظم البكاء يصدر عن الفتيات الجدد. عندما تبكي فتاةٌ جديدة في الليل، تأتي راهبة المسكن إلى ركنها وتخبرها أن تتحلى بالشجاعة وتتلو صلواتها.

كنت فتاةً جديدةً منذ بضعة شهور، لكن لم تأتِ قط راهبة مسكنٍ إلى ركني.

الفتاة في الركن المجاور تدعى "روزماري". لديها وجهٌ بنفسجي ذو بُقع، ويداها وذراعاها لونها بنفسجي. حين تحك ذراعها تتطاير قشورٌ جلدية فضية اللون على ردائها. تقول إنها هكذا، بسبب وجودة فجوةٍ في قلبها. هل هذا يعني أن قلبها مكسور، ولذلك تبكي أكثر من الأخريات.

سألتها هامسةً:

- لماذا تبكين؟

- أشعر بالحنين إلى البيت.

- حنين؟ ماذا تعنين؟

- أفتقد والدتي، أفتقدها كثيرًا.

حاولتُ التفكير في معنى الحنين إلى البيت، ولماذا يثير البكاء. عندما تثور أمي قد تبدأ بالصياح قائلة: "لقد سئمت من ذلك المنزل اللعين! لقد سئمت منه! سئمت منه!".

فهمت أن ذلك ليس الشيء نفسه.

عندئذ فكرت في معنى أن تفتقد والدتها كثيرًا لدرجة البكاء ليلًا. لكني لا أقول "والدتي" بل "أمي".

في مدرستي الخضراء القديمة كان الجميع ينطقونها "أمي" أو "مامي". لكن في مدرستي الجديدة يقول الجميع تقريبًا "مامي" أو "والدتي". ما عدا الفتيات الأجنبيات يقلن "ماما". ينطقونها بطريقة جميلة حيث يمطونها هكذا " ماو ماو". تبدو الكلمة أنيقةً للغاية.

أغمضت عينيِّ وحاولت تخيُّل أمي. كم تبدو لطيفة حين تتأنق استعدادًا للخروج، وحين تغني بصوت جميل حين يكون مزاجها رائقًا، وحين تسمح لي بمساعدتها في عمل كعكة التفاح الضخمة، وحين تأخذني للتنزه ليلًا أنا وهي فقط في الأتوبيس.

أتخيل أمي بخير، لكن لست واثقةً من أن ذلك يعني أني أفتقدها.

"روزماري" تبكي. وهذا يدفعني للتساؤل دومًا.

التساؤل عن أمي.

هل تفتقدني أمي أيضًا؟

هل تفتقدني على الإطلاق؟

***

جاء أول يوم أحد يعيدني فيه أبي للمنزل. غضبت أمي، وقالت:

- ما الذي تفعله هنا؟

رد أبي:

- إنه يوم الأحد.

- أعرف أنه كذلك، تبًا. ما الذي تفعله هي هنا؟

- ماذا تعني؟

- ماذا أعني؟ ماذا أعني؟ سأخبرك ماذا أعني. إرسالها بعيدًا كان قرارك وحدك. والآن ما يهمني هو أنها إما أن تكون في مدرسة داخلية أو لا. لم تكمل سوى أسبوع واحد فقط، لكنك أحضرتها إلى هنا في العطلة الأسبوعية. ليكن هذا آخر يوم أحد تعود فيه. هل تفهم ما أقول؟ لا أريد رؤيتها مجددًا حتى إجازة منتصف العام.

- لكن هذا بعد ستة أسابيع.

- لا أهتم حتى وإن كانت بعد ستين أسبوعًا.

- هل تمزحين! إنها في العاشرة من عمرها. ألا تظنين أنكِ تبالغين...

- إما أن تكون في مدرسةٍ داخليةٍ أو لا.

***

ستة أسابيع تساوي سبعة أيامٍ ضرب ستة أي اثنين وأربعين يومًا.

المدرسة ممتعةٌ للغاية يوم الأحد. يمكنني التجوُّل في المكان كله، وبالكاد أقابل أحدًا. يمكنني سماع الأصوات التي في العادة لا أسمعها في الأيام الأخرى، مثل الدقات المختلفة لكل ساعة، وهسيس الماء في الأنابيب، وغرفة السخَّان التي تعاني

من الربو. كما أسمع صوت الراهبة البنية الضئيلة حين تصعد السُلَّم بسرعة، أسمع حفيف رِدائها وجلجلة مسبحتها وصليل مفاتيح كشك الطعام. هذا رائع.

أسمع خطوات أقدام تأتي نحوي على بعد ممرين وحين أصل إليها أكتشف أنها خطواتي أنا.

حين تبقى فتاةٌ في المدرسة يوم الأحد يمكنها فعل الكثير من الأمور.

يمكنها الخروج مع الأخت "جارليث" في نزهات يوم الأحد؛ إلى حديقة الحيوان أو المتحف أو ربما للتمشية في المتنزه وسط الطبيعة.

يمكنها الذهاب مع صديقتها المفضلة إلى منزلها إن كانت أمها لا تمانع رؤيتها يوم الأحد. يمكنها الجلوس على السلالم الدافئة خارج غرفة السخَّان والتحدث إلى الفتيات الداكنات، أو يمكنها النظر من النافذة الطويلة أعلى السُلَّم في انتظار سيارة والدها في حال جاء ليراها.

يمكنها الجلوس على سلالم غرفة السخَّان والنظر من النافذة معًا.

لا أعرف أبدًا أي يومٍ من أيام الأحد سيأتي فيه أبي لزيارتي. يأتي سرًا، لأنه لا يريد أن تعرف أمي. يقول إنه حتى هو نفسه لا يعرف متى يمكنه القدوم. على سبيل المثال إن ذهبت أمي معه إلى البار في صباح الأحد عندها سيعجز عن القدوم سرًا، أو إن أرادته للذهاب في زيارة بعد الظهر أو لنزهة بالسيارة وبعض الخمر، عندها سيكون مرهقًا للغاية.

قال لي:

- حسنًا علينا اعتبار الأمر مفاجأةً لي ولكِ.

- لكن كيف تكون مفاجأةً لكلينا؟

- لأنكِ لن تعرفي أي يومٍ من أيام الأحد سأحضر، وكذلك أنا.

عندما يأتي أبي يبقى فقط لدقيقة. يعطيني القليل من المال على الرغم من إخباري إياه بأنه ما من فرصةٍ لإنفاقه هنا.

يخبرني بكل ما يفوتني من أحداثٍ في المنزل، وكيف ينمو الطفل الجديد في بطن أمي. يصف لي حجمه بقبضه يده.

ثم يخبرني بما يحدث خلف ظهري، إنها التوسيعات الجديدة في المنزل. هناك مطبخٌ كبيرٌ وجديد، وغرفة نومٍ ذات بابٍ جرار، وغرفتان نومٍ في العلية، وحمامٌ آخر، وسلالم.

حمامٌ آخر! وسلالم!

ثم يخبرني عن فوز "ديرديري" في سباق حمل البيض بالملعقة في مدرستها الخاصة الجديدة.

تألم قلبي حين فكرت بـ"ديرديري" وهي تعبر خط النهاية، أتخيل تعبير وجهها حينما أدركت أنها فازت، وذراعها الممتدة أمامها، والبيضة التي ما زالت ترتج على الملعقة.

قال أبي: "فيما عدا أنها لم تكن بيضةً، بل حبَّة بطاطس، لأن البيض كان لينكسر بالتأكيد".

كان يحمل كيسًا ورقيًا كبيراً بني اللون بين ذراعيه لأضعه في صندوق طعامي، كان من السهل تخمين محتوياته. هناك بطاطس شيبسي "كينج كريسبس"، وفولٌ سوداني، وأكياسٌ صغيرة من بسكويت "كريم كراكرز"، وقطعتان من بسكويت "كلاب ميلك" بالشوكولاتة، وزجاجة صودا بالبرتقال، لكنها تحتاج إلى فتاحة. إلا أنه حتمًا طلب من صاحب البار أن يرخي الغطاء قليلًا.

هناك أربع زجاجاتٍ أخرى تظهر رؤوسها من الكيس، لكن أبي قال إنها لأمي لتشربها وهي تشاهد التليفزيون يوم الأحد. كل زجاجةٍ عليها غلافٌ ذهبي حول قمتها، يقول أبي إنه يمكنني الحصول عليه من أجل كتاب قصاصاتي الجميلة. قشَّرتُ الأغلفة بحرصٍ، لكني مزقت واحدًا فقط.

يسحب أبي الزجاجات من الكيس ويضعها واحدةً تلو الأخرى على أرضية السيَّارة. أتمنى لو أستطيع الحصول على الملصقات المكتوب عليها الاسم أيضًا لأنها جميلةٌ جدًا. لونها أسودٌ وذهبي وعليها اسم "لانسر".

***

هنا، يناديني الجميع بـ"كاري"، حتى الراهبات. ما عدا تلك المعلمة التي تذكرني بالعمة "سال" وهي ترتدي جيبةً قصيرة، تناديني "كليوباترا". كانت "كليوباترا" ملكة لها قُصَّة تشبه قُصتي تمامًا.

أمَّا الراهبة البنية الضئيلة فتناديني بـ"كارا".

"كارا" هو اسمٌ إيطالي، هذا ما أخبرتني به الراهبة البنية الضئيلة وهي تمشط شعرها بشدةٍ بحثًا عن القمل. لم تكن تعرف كلمة "قمل" بلغتنا لذا كانت تسميها "حيوانات صغيرة". قالت لي:

- لديكِ مناطق صلعاء صغيرة في رأسك يا "كارا"، أتعرفين ذلك؟

- نعم أيتها الأخت.

- أتعرف أمكِ؟

- كلَّا، فقط أخي يعرف.

- لكن أمكِ لا تعرف؟!

- كلَّا أيتها الأخت.

أزاحت الراهبة البنية الضئيلة شعري بعيدًا عن أذنيّ وهمست إليَّ:

- لا تخجلي يا "كارا". لا تبكي. ستأخذكِ أمكِ إلى الطبيب. ثم سينمو لكِ المزيد من الشعر الجميل. انظري، لقد بدأ ينمو بالفعل!

- نعم، لكن سيأتي صلعٌ آخر دومًا.

- ستأخذكِ أمكِ إلى الطبيب ولن يأتي المزيد من الصلع.

عندما ينادينني بـ"كارا" هذا يعني أنني غاليةٌ في قلوبهن، فكلمة "كارا" بالإيطالية تعني "عزيزتي"، يقولون: "mia cara" أو "cara mia".

أحب عندما ينادينني بـ"كارا" و"كاري". هذا أفضل من "كارولين"، فهو يعطيني شعور بأنني مذنبة، أنني وقعت في مشكلة، كما يذكرني بخالاتي، دائمًا ما تكنَّ صارمات معي.

لكن عميقًا بداخلي ما زلت "تاتي".

هنا.. أنا فتاة النجمة الذهبية.

لقد حصلت على نجمةٍ ذهبية. بعد أسبوعين فقط! كان هذا هو اليوم السادس عشر. كان أفضل يومٍ مر عليَّ في المدرسة. قالت الراهبة المعلمة أنها لم ترَ فتاةً تحرز هذا التقدم طوال حياتها، إنها لم ترَ فتاةً تستحق نجمةً ذهبيةً مثلي. اسم الراهبة المعلمة هو الأخت "دومينيك". إنها المسؤولة عن القسم الابتدائي ومن بينه فصلي. علقت بحث الجغرافيا الخاص بي على الجدار وصفَّق الجميع.

عندما حصلت على نجمةٍ ذهبيةٍ أول مرة تمنيت لو أن معي مقصًا كي أقص النجمة وبجانبها اسمي لأرسلها إلى المنزل ويروها في حالة لم يصدقوني. لأنهم

يقولون إنني كاذبة. لكن بعد مرور بضعة أيام تعودت على رؤيتها على الجدار مع واحدةٍ أخرى، وواحدة أخرى ظهرت بعد ذلك، إنها فضية، لكنها ما زالت تحتسب.

عندئذ صدقت أن ما يحدث حقًا يحدث لي أنا. إنني فتاة النجمة الذهبية وعليهم تصديقي.

هنا.. أصبحتُ صديقةً مفضلةً لإحداهن. إنها فتاةٌ إنجليزية تُدعى "لورا بارتوك". ذات يومٍ أخبرتني أنني صديقتها المقربة، وشبكت ذراعها بذراعي ونحن نغادر الكنيسة. قالت "لورا":

- أنتِ صديقتي المفضلة يا "كاري"، المفضلة للغاية.

شعرت بالغرابة حين اكتشفت فجاةً أني صديقةٌ مفضلة لشخصٍ ما. جعلني هذا أرغب بالبقاء وحدي قليلًا كي أفكر كثيرًا فيما تعنيه الصديقة المفضلة. أنا صديقةٌ مفضلةٌ لـ"لورا" التي تسخر منها الأخريات أحيانًا ويضايقنها لأنها – حسب كلامهم - تتحدث وكأنها عجوز خرجت من كتاب. فهي تقول: "في الواقع" و"بصراحة!"، و"يا للطف!"، و"يا للروعة!"، و"سوف أقوم بذلك"، و"لن أقوم بذلك"، و"لنفترض".

أدافع عنها دائمًا: "هي ليست عجوز، ليست كذلك. إنها فقط إنجليزية، لذا كلامها مختلف".

وهكذا صرت صديقتها المفضلة.

سألتني "لورا" وهي تتأبَّط ذراعي:

- حسنًا، من هي؟

- من هي ماذا؟

- صديقتك المفضلة؟

- أنا؟

- نعم، أنتِ.

- حسنًا، يمكنكِ أن تكوني كذلك إن أردتِ.

قلت ذلك لأنني شعرتُ أن هذا ما تريده "لورا".

عندئذٍ طلبت مني "لورا" أن أذهب معها إلى منزلها الأحد القادم كدليلٍ على كوننا صديقتين مفضلتين.

قالت أننا سنأكل دجاجًا مشويًا على العشاء. ويمكننا تناول الآيس كريم، بينما نشاهد التليفزيون. قالت إننا سنضحك على دعابات أخيها الأكبر ثم نلعب بالألعاب في غرفة اللعب الخاصة بها. وفي طريق عودتنا إلى المدرسة مجددًا يمكننا التوقف عند محل الحلوى وسيشتري لنا والدها كل ما نتمناه ونطلبه حتى يمتلئ صندوقا طعامنا عن آخرهما.

هذا يبدو جيدًا. ليس فقط لأنني سأخرج يوم الأحد، بل لأنني سأحظى بشيءٍ أفكِّر به طوال الأسبوع الذي يسبق ذلك الأحد، وشيء أتذكره الأسبوع الذي بعده. أتخيلُ أولًا ثم أتذكَّر. وجه أمٍ إنجليزية، وصوت والدٍ إنجليزي، وشكل غرفة لعب.

أو رائحة الديك الرومي أثناء مشاهدة التليفزيون وتناول الآيس الكريم بالملعقة. ثم العودة إلى المدرسة والجلوس في سيارةٍ غريبة أثناء حمل صندوق الطعام الممتلئ إلى آخره.

تبدو تلك أفضل وسيلةٍ لقضاء يوم الأحد.

قلت لها:

- نعم! بالطبع! هذا سيكون... أوه! بالتأكيد، شكرًا لدعوتي. سيكون هذا رائعًا!

لكن في اللحظة الأخيرة اضطررتُ للرفض.

بسبب أبي، لأنه قد يأتي لرؤيتي وحينها لن أكون هناك في انتظاره. لكـن لم أسـتطع إخبـار "لورا" بذلك، لأنه قد لا يأتي وستظن "لورا" أني غبية لانتظاري طوال اليـوم أمـرًا قـد لا يحـدث أبدًا.

قالت "لورا":

- لكني أخبرت والدتي بالفعل. أخبرت الأخت "دومينيك". أخبرت الجميـع، الجميـع. والآن، لماذا لن تأتي؟

- لا أشعر برغبةٍ في ذلك.

- حسنًا، انتهى الأمر إذًا. لا يمكن أن تكوني صديقتي المفضلة بعد الآن. في الواقـع لا يمكـن أن تكوني صديقتي على الإطلاق.

صرت أقضي أيام الأحد بين سلالم غرفة السخَّان وغرفة الهوكي أثناء هطول المطر. أو أصـعد السُلَّم لأنتظر مجيء أبي عبر النافذة الطويلة، لكـن معظـم الوقـت كنـت أبقـى مـع الفتيـات السمراوات اللاتي لا يذهبن إلى أي مكان. رآهن أبي ذات مرةٍ وقال إنهـن أشـبه بقطـطٍ سـوداء كسولة مستلقيةٍ في الشمس. وأنني القطة المخططة في الوسط.

طوال الأسبوع لديهن صديقاتٍ آخريات، لكن أيام الأحد لديهن بعضهن بعضًا وحسب.

جميعهن يردن اللعب معي. يردن دومًا العبث بشعري، لكنهن لا يـستطعن، لأن الراهبـة البنية الضئيلة تضفره لي يوميًا كي لا يلاحظ أحدٌ الأجزاء الصلعاء الصغيرة في رأسي. تطلب مني الفتيات الجلوس معهن ثم نرفع أكمامنا ونضع أذرعنا جوار بعـضها لـنرى الـدرجات المختلفـة لألوان البشرة.

أكثر بشرة غامقة يكون لونها شديد السواد.

أمَّا البشرة الأكثر بياضًا فهي لي أنـا. أنـا الوحيـدة التـي يوجـد لـديها نمـش. الفتيات الداكنات يحببن النظر إلى النمش. دومًا يلمسنه ليعرفن ملمسه. ذات

مرةٍ لعقته إحداهن ثم أخذت تضحك لوقتٍ طويل وهي تخفي وجهها بيديها، بينما أرى لمعان أسنانها البيضاء وعينيها من بين أصابعها البنية الخجولة.

الأذرع الموجودة في الوسط تختلف ألوانها بين الأبيض والأسود كالتالي: تقريبًا أسود، وبني داكن، وبني عادي، وبني ذهبي، وبني شاحب، وهناك ذراعٌ أمريكية لها درجةٌ مختلفةٌ من البني يسمى "تان".

أحيانًا تقوم الفتيانت بامتحاني في نطق أسماء الأماكن التي أتين منها. "دار السلام تنزانيا"، و"سيييييرااليووون، و"بابوا غينيا الجديدة"، و"أوووووغندا"، و"نيو ديلهي"، و"ماساااا تشو ستس".

أحب الفتيات الداكنات. يلعبن بهدوء، ويغنين أحيانًا أغنياتٍ رقيقة لا أفهمها. أحيانًا يطلبن مني إخبارهن قصصًا عن عائلتي ومنزلي، أحيانًا أختلق بعض القصص حين تنفد مني الحكايات أو عندما يكون هناك شيءٌ لا أرغب بالبوح به. يستمعن بأعينٍ مفتوحة، ويسألن الكثير من الأسئلة، ويستمعن مجددًا. وكأنني أنا القادمة من بلادٍ بعيدة وليس من منزلٍ على بعد عشرين دقيقةً بالسيارة.

تطل النافذة الطويلة في الطابق الرابع على أفضل منظرٍ للمدرسة، البوَّابة والشارع الواسع المليء بالأشجار والأرض الواسعة التي تمتد خارج حدود المدرسة. وهكذا إن أتى أبي يمكنني رؤيته من على بعد. عندما أرى سيارته عند شجرة الصفصاف أنزل السُلَّم سريعًا. لأني أعرف أنه إن لم يرني أبي في اللحظة التي يوقف فيها السيارة سيرحل فورًا. كما فعل من قبل. عندها لم أكن عند النافذة ولا السلالم، وعندما لاحظت سيارته كان الأوان قد فات ببضع ثوان، كان يلتف بالسيارة ليعود إلى الشارع المليء بالأشجار.

ذلك اليوم حاولتُ أن أجعل أبي يراني، جريت خلف سيارته وأنا أصيح: "انتظر! انتظر!". حاولتُ الجري أسرع والصياح بصوتٍ أعلى. جريتُ، وناديت بصوتٍ أعلى: "أرجوك يا أبي انتظر!".

لكن لم تقدر ساقاي على الاستمرار في الجري أكثر من هذا.

ظلت سيارة أبي تصغر وتبتعد خلف شجرة الصفصاف. ظلت تصغر وتـصغر حتـى صـارت بقعةً سوداء لامعة تحجبها بوَّابة المدرسة الضخمة.

رحل أبي، لكني ظللت أصرخ، ظللت أتمنى أن يصل صوتي إليه، أن يتبعه عبر الشارع ومن خلال البوابة وعبر السور وحتى الطريق الريفي إلى أن يصل إلى سيارته. لأنه دومًا يقود فاتحًـا الزجاج في حال أراد البصق.

حينما استدرت لأعود: وجدتُ الفتيات الداكنات يقفن خلفي. لم أصدق أنهن نهـضن مـن على السلالم ليلحقن بي إلى الشارع، ويقفن في صمتٍ خلفي.

كم كان رهيبًا الصراخ هكذا طويلًا أمامهن. كن يحاولن النظر في اتجاهٍ آخر، مـا عـدا فتـاةٍ تدعى "روزا". ظلت تنظر إليَّ باحتقار.

بعـد بـضع دقـائق بـدأت "روزا" بالـصياح قائلـة: "انظـري إلى نفـسك، يـا إلهـي، انظـري! تتصرفين كمجنونة. ألم تتعلمي قط السيطرة على أعصابك؟ لا أعـرف لمَ تبكـين بـأي حـال. قـد تمضي ستة أشهرٍ كاملة قبل أن أرى أبي".

لوهلة خشيت من أن يخبرن المدرسة كلها بما حدث، فـيظن الجميـع أني طفلـةٌ مدللـة أو امرأةٌ مجنونة كما قالت "روزا".

لكني عرفت لاحقًا من "لورا" عندما صرنا صديقتين مفضلتين مجددًا أن الفتيات الـداكنات لا يكشفن سر أحدٍ أبدًا، الفتيات الداكنات لا يفعلن ذلك أبدًا.

أفضل وقتٍ في يوم الأحد هو عندما يرن الجرس في ميعـاد شرب الـشاي. عنـدها أسـتطيع ترك النافذة الطويلة، لأن الوقت قد تأخر وأعرف أن أبي لن يأتي. من الغريـب الشعور بالراحـة بسبب ذلك، فأنا لا أكون حزينةً أو محبطة، بل أشعر بالحرية والسعادة.

لا يوجد ما أفعله، أنزل السُلَّم على مهل. أذهب إلى قاعة الطعام، وأجلس على المائدة. تصطف المقاعد الخالية من حولي يوم الأحد. هناك كيك الآيس كريم، ومثلثات جبن، وكيس كامل من شرائح الخبز المحمص بالزبد، كلها لي وحدي لأتناولها مع الشاي.

***

أخذتني أمي لاستشارة ذلك الطبيب الذي تقول عليه "متخصص". ترك لنا أبي أجرة التاكسي على الترابيزة وشيكًا للطبيب لأنه سيكشف على رأسي. لم يكتب أبي على الشيك كلمة طبيب بل كتب "الأستاذ "ب. ر". ولقب عائلته.

في التاكسي قالت أمي لي ولـ"جيني":

- هذا لأنه ليس طبيبًا، بل هو أعلى مرتبةً من ذلك. لذا ندعوه بالأستاذ. ولذلك أيضًا لا نقول على مكتبه عيادة بل عيادةً مختصة.

لم تكن "جيني" تستمع إلى أمي، بل ظلت تنظر عبر النافذة طوال الطريق. لم يتكلم السائق أيضًا، بل ظل يستمع إلى الراديو ويغني معه. لذا كنت أنا وأمي فقط من نتحدث.

بدأت أمي تضحك على غناء السائق وهي تغمز لي، لذا بدأت بالضحك على الرغم من أني لا أعرف ما المضحك في الأمر.

شعرت أنني رفيقة أمي ذلك اليوم. كلانا فقط كان يضحك على السائق. شعرتُ وقتها أن أمي ربما تحبني.

فعندما عدت إلى المنزل منذ أيام قليلة، بعد أن غبت عنهم ستة أسابيع كاملة، لم أشعر بأنها افتقدتني، لم تبدُ حتى سعيدة برؤيتي. قالت:

- يا إلهي، لقد ازداد وزنك، ماذا يطعمونكِ في هذا المكان بحق الجحيم؟!

ثم خرجت مع العمة "سال".

العيادة بها غرفة واحدة فقط. وهي في منزل يشبه ذلك المنـزل في فـيلم "مـاري بـوبينز". هناك سلالم عند الباب الأمامي، والصالة بها مقاعـد جلديـة ذات مـساند للـذراعين وفـازة بهـا ورودٌ طويلة وسكرتيرة تكتب على آلةٍ كاتبة قالت لـ"جيني": "تفضلي بالجلوس"، بيـنما قالـت لي ولأمي: "تفضلا بالدخول".

بدت أمي جميلة للغاية وهي تجلس على طرف الكنبة وتتحدث إلى الطبيـب، بيـنما يمـلأ استمارة. كانت ترتدي فستانها الجديد الخـاص بالحوامـل ومعطفهـا الأنيـق، وتتحـدث بـذلك الصوت العذب الذي تتحدث به مع الأغراب فقط.

هناك نافـذتان كبيرتـان خلفهـا، يمكننـي رؤيـة الـشارع كلـه مـنهما. أرى درابـزين الـسلم الخارجي للمنزل، وأشجار الحديقة التي تقع على الناحية الأخرى مـن الـشارع، والمـارة الـذين يسيرون بسرعة. تمنيت لو ينظروا نحوي كي أرى وجوههم، لكنهم لم يفعلوا قط.

تفوح من الطبيب رائحةٌ غريبة، تكاد تكون رائحة عطر، لكنها ليست كذلك.

فحص المناطق التي سقط منها شعري. قال إنه يسمى "ألثع... شيئًا مـا"، لا أعـرف تكملـة الاسم.

يرتدي معطفًا مخططًا، وهناك ميدالية ذهبيةٌ صغيرة في طرفي كميه. ظل يجذب خـصلاتٍ من شعري إلى الأعلى بأطراف أصابعه. والخصلة التي تـسقط يطوحهـا في الهـواء. خـشيت أن يستمر في جذب شعري حتى أصبح صلعاء تمامًا مثله.

لديه كرش صغير، ويرتدي جزمة مقدمتها طويلة.

سأل:

- هل تعانين من مشكلات صحية أخرى؟

قلت له:

- لا أعرف أيها السيِّد.

رد قائلًا:

- كنت أسأل والدتكِ.

شعرتُ بالحرج واحمر وجهي.

أخبرني أن أنتظر بالخارج.

بدت "جيني" وهي تجلس على الكرسي الجلـدي ذي المـساند وتقـرأ مجلـةً نـسائيةً كبـيرة وتضع إبهامها على لسانها كي تقلب الصفحة وكأنها سيدة رائعة. سألتني:

- ماذا قال؟

- لا شيء.

- لا، لقد قال شيئًا، لقد سمعته.

- لماذا تسألينني إذًا؟

شعر السكرتيرة مرفوع لأعلى على شكل كحكة. الآلة الكاتبة الخاصة بها أفـضل كثـيرًا مـن التي تملكها أمي، كما أنها تصدر صوتًا مختلفًا. إنه أرق وأبطأ مثل خرير الماء. نظرتْ لي لثانيـة واحدة وابتسمت. هناك سلكان طويلان يتدليان من أذنيها. عنـدما يـرن التليفـون تنـزع أحـد السلكين من أذنها ثم تعيده فور أن تنهي المكالمة.

أعادت "جيني" المجلة مكانها واقتربت من باب غرفة الطبيـب. أشـارت إليَّ بيـدها كي آتي. قلت لها:

- لا يمكننا فعل ذلك يا "جيني". لا يمكننا التنصت، ليس هنا.

ردت عليَّ:

- هششش، إنها تقول شيئًا عنكِ.

- ماذا؟ ماذا؟

- تقول إنكِ حسَّاسة وعصبية.

- ما الذي يعنيه هذا؟

- لا أعرف.

- إنه يسألها الآن إن كانت الأمور على ما يرام في المنزل.

- وماذا تقول؟

- هششش. إنه يسألها عن علاقتها بأبي.

- وماذا قالت؟

ابتعدت "جيني" عن الباب لوهلة وهمست قائلة:

- يا لها من كاذبةٍ لعينة!

- "جيني"!

- إنها كذلك بالفعل.

اختلست النظر نحو السكرتيرة ثم قلت لـ"جيني":

- يجب عليكِ عدم السب. أنتِ تسبِّين كثيراً هذه الأيام. سأخبر والدينا إن كررتِ ذلك. أتسمعينني؟ سأفعل.

رفعت السكرتيرة رأسها مجددًا وابتسمت ثم نظرت للأسفل.

أعادت "جيني" وضع أذنيها على الباب. قلت لها:

- إن اكتشفت أمي أنكِ تسبين سينتهي أمرك. سوف...

- تبًا لها!

- "جيني"!

- اسمعي، أعلم ماذا تسمى.

- ما هي؟

- تلك المناطق الفارغة في رأسك.

- وكذلك أنا.

- ماذا إذًا؟

- "ألثع... شيئًا ما" لا أذكر باقي الاسم؟

صححت لي قائلة:

- "الثعلبة"، وخمني ماذا؟

- ماذا؟

- يقول إنه لا علاج لها.

***

مع انتهاء إجازة نصف العام لم تعد أمي تحبني.

حتى إنها أعادتني للمدرسة قبل الموعد بيومٍ كامل. أخبرتها:

- أظن أن موعد العودة غدًا يا أمي. أنا متأكدة من أنه غدًا.

- لا تبدأى ألاعيبكِ تلك. هل تعتقدين أنني لا أعرف الموعد. لا تحاولي التهرب من المدرسة.

- لكنني لا أتهرب يا أمي. أقسم لكِ، أنا واثقة من أن الموعد غدًا.

- كنت أعلم أن هذا سيحدث. كنت أعلم، اللعنة! تحاولين التهرب من الرجوع إلى المدرسة. يا للأسف، لقد اتخذتِ قراركِ منذ البداية وعليكِ تحمل تبعاته.

حاولت إخبار أبي حين ركبنا السيارة وحين وصلنا للمدرسة. لكنه قال لي أننا وصلنا باكرًا قليلًا وحسب لهذا لا توجد سياراتٌ أخرى، كما أن أمي لن ترتكب أبدًا أبدًا تلك الغلطة الغبية.

تجولت في أنحاء المدرسة الخالية أعد درجات السلالم، وأنظر إلى اللافتات التي بجوار الأبواب المغلقة، وأختلس النظر من ثقوب المفاتيح إلى الغرف الصامتة.

ثم بدأ الظلام يحل. في البداية تسلل ببطء، ثم بدأ يشتد بالداخل. زحف أسرع وأسرع. رأيته يمتد في الممرات الطويلة ويملأ الأركان ويغطي السلالم.

حل الظلام تمامًا وما زالت المدرسة خالية. حاولت إضاءة أحد المصابيح، ثم حاولت إضاءة آخر. لكن يبدو أن الكهرباء مقطوعة. عندئذٍ بدأت أشعر حقًا بالرعب.

التليفون معلق على الجدار. بحثت بأصابعي في الظلام عن مدخل العملات وأزرار التشغيل.

- أمي! الحمد لله أن أحدكم بالمنزل. الظلام يحيط بي، أنا وحدي تمامًا. إنه اليوم الخطأ. أخبرتك أنه كذلك. الموعد غدًا. لقد أخبرتك! أخبرتك! لقد فعلت!

لكن أمي قالت أنها غلطةٌ وما باليد حيلة، وأنه عليَّ قضاء الوقت كما يكون وحسب.

- ماذا؟!

- وما الذي يمكنني فعله من هنا؟!

- لكن يا أمي كل الأماكن مغلقة، مبنى الطالبات الأكبر مني مغلق، والفصول، وغرف النوم. ليس لديِّ مكان أنام فيه حتى.

- إنه يومٌ واحدٌ فقط، كما أنني لا أعلم أين والدك، يا إلهي! لا بد من وجود شخصٍ ما بالجوار.

- كلَّا يا أمي لا يوجد.

- اسمعي، لقد طفح الكيل بي هنا. "ديرديري" ثائرة و"لوك" مريض وأعاني ألمًا لعينًا في ظهري وبالكاد أستطيع أن أمشي. أعذريني.

- أرجوكِ يا أمي.

- ماذا تريدينني أن أفعل؟ أضع "لوك" في عربة الأطفال وأجرها حتى أصل إليكِ؟! اذهبـي إلى الدير ستجدي إحدى الراهبات.

- سأضطر للخروج كي أصل للدير والظلام حالك.

- ماذا عن مبنى الفتيات الأكبر سنًا إذًا؟

- أخبرتك أنني لا أستطيع، فالباب...

بيب بيب بيب.

انقطع الاتصال بأمي.

لم يبق معي عملاتٌ معدنية.

عليِّ التوقف عن البكاء، غطيت فمي بيدي لأحبس شهقات البكاء، فأنـا لا أحتمـل صـوت صداها في الظلام. التقطتُ سمَّاعة التليفون وظللت أرفعها وأضـعها عـدة مـرات، بيـنما أفكـر فيما أفعله وأحاول في الوقت نفسه عدم النظر مـن النافـذة المطلـة عـلى الحديقـة بالخـارج. كرهتُ الأشجار حينهـا.. بـدت كـالوحوش الـضخمة بأجـسادها المتجعـدة ومخالبهـا الطويلـة وشعرها الأشعث الذي يهتز حين تهمس لبعضها بشأن خطتهـا لعبـور الـسور والنيـل منـي إن وضعت قدمًا واحدة في الخارج لأصل إلى الدير. رفعتُ سمَّاعة التليفون مجددًا واتصلت بمركز الاتصالات وتحدثت إلى شخصٍ ما في بار "ميو" وأخبرته بما أنا فيه.

بعد عشر دقائق وصل أبي.

بعد عشرين دقيقة كنت بالمنزل.

بدأت أمي بالضحك حين رأتني أدخل المنزل. كانت تشبه البيضة وهي تضع يـدها خلـف ظهرها. قالت لي:

- كنتُ أعرف أنكِ ستتصلين بأبيكِ أيتها الحثالة.

ثم سألتني إن كنت أريد طعامًا. فقلت:

- لستُ جائعة.

- لكنكِ دومًا جائعة.

- لستُ كذلك. سأذهب للنوم.

- تعالي هنا، ما مشكلتك؟

- لقد تأكدتُ الآن من أنكِ لا تريدينني.

- ماذا؟ ما الذي تتحدثين عنه بحق السماء؟

- أنا متأكدة الآن من هذا، أنا متأكدة.

***

حين أكون في المنزل أفكر في المدرسة. في الفتيات الكثيرات اللاتي ألعب معهن وينادينني "كاري" ويتأبطن ذراعي ويسرن معي.

أفكر في أشعة الشمس التي تمر عبر زجاج الفصل، بينما الراهبة المعلمة تقرأ لنا قصةً تضحكني بشدة حتى أعجز عن سماع ما تقول. تدمع عيناي، بينما أمسك بطني التي تؤلمني من شدة الضحك. وفي النهاية تطلب الراهبة المعلمة متطوعة أخرى لاستكمال القصة.

عندها ترتفع كل الأذرع وتتعالى الصياحات القائلة: "أيتها الأخت! أيتها الأخت! أنا سأكمل، أيتها الأخت".

ما عدا أنا عندما فتحت فمي صحت قائلة: "مامي! مامي!".

كدت أموت حرجًا والفصل بأكمله يضحك عليَّ.

لكن الراهبة المعلمة نظرت إليَّ بابتسامتها المحببة لتقول إنها لا تمانع، عندها أحببت الراهبة المعلمة كثيرًا، وتمنيت لو أريد احتضانها. ثم أحببتها أكثر وأكثر حتى تمنيت لو كانت هي أمي الحقيقية.

1973



أحدهم أرسل لي خطابًا!

كاد يغمى عليَّ حين سمعت اسمي يُنادى ورأيت الظرف عاليًا في يد أمينة الطالبات. نظر الجميع إليّ، لأن هذا لم يكن معتادًا.

هذه هي المرة الأولى التي يصل إليَّ فيها خطاب بعد عامين في تلك المدرسة.

نادت أمينة الطالبات اسمي ثانيةً.

شعرت بحماسٍ شديد وأنا أمسك بالظرف في يدي. إنه من ورق اللافندر البنفسجي السميك، اسمي عليه، الخط رائع مكتوب بقلم الحبر السائل. كان نظيفًا ومنسقًا تمامًا.

شعر الجميع بالفضول، فأحاطت بي الفتيات وهو ما جعلني أتحمس أكثر وأكثر للخطاب.

- من أرسله إليكِ يا "كاري"؟

- لا أعرف.

- افتحيه. هيا، افتحيه.

ورق الخطاب به زخارف جميلة، ورائحته تشبه رائحة بودرة التلك. رفعت الظرف لأعلى لكي تستطيع فتاة فتاة شمَّه. الورقات داخل الظرف أيضًا لونها بنفسجي.

أخرجت الرسالة ونظرت إلى التوقيع في أسفل صفحة الأخيرة.

- أوه.

- ماذا؟

- إنه من أختي. من أختي الكبرى "جيني". إنها تكبرني بعامين. هي الآن في الرابعة عشرة وتذهب إلى المدرسة الثانوية.

لم أنتبه للصورة التي سقطت من بين الأوراق على الأرض، لأنني اندهشتُ من أن "جيني" أرسلت لي خطابًا ومن غرابة خطها كذلك.. إنه واضحٌ وكبير. في العادة حين كنت أرى خطها في نوتتها الصغيرة.. كان يبدو صغيرًا ومنمنمًا.

التقطت "لورا" الصورة وأعطتني إياها.

- أوه، أنظرن، إنه أخي الصغير. لقد تعلم المشي. لا أستطيع الانتظار حتى أراه. أشعر وكأن دهورًا قد مضت. لم يبقَ سوى عشرة أيامٍ فقط وأعود.

ظلت الفتيات يتبادلن الصورة ويصحن حتى بدا صوتهن أشبه بالنوتة الموسيقية.

امتلأتُ فخرًا.

أرادتني "أوليفيا" أن أقرأ الخطاب بصوتٍ عالٍ، لكن "لورا" أخبرتها أن تهتم بشؤونها وحسب، وقالت:

- الخطابات من الخصوصيات. وقد تفضِّل "كاري" قراءتها وحدها. اذهبي للفصل يا "كاري"، لن يرن الجرس إلا بعد عشر دقائق أخرى.

ابتسمتُ ابتسامتي"الصديقة المفضَّلة" لها، ثم ذهبتُ إلى الفصل وجلست على حافة النافذة وظهري للشمس التي سقطت أشعتها على ظهري لتدفئه. وضعتُ صورة "مايكل" على النافذة.. جعلها الضوء تكاد تكون شفَّافة. فتحت الخطاب ثانية وأخرجت الرسالة مرة ثانية.

الخطاب مثالي، مثل كل ما تفعله "جيني". العنوان في زاوية الخطاب وتحته التاريخ ثم في الأسفل كلمة "مع خالص حبي" كالعادة.

كتبتْ ملاحظة في نهاية الخطاب تقول: "متى ستعودين إلى المنزل؟".

شممت الورق مرةً أخرى ثم بدأت أقرأ.

لم أستطع إيقاف يَدَيَّ عن الارتعاش بعدما أنهيت قراءة الخطاب. انتظرتُ دقيقةً حتى أهدأ ثم ذهبتُ إلى مقعدي وأخرجت مفكرة قصاصاتي الجميلة وفتحته. وضعت الظرف الفارغ بين الصفحات ثم وضعت صورة "مايكل" خلفه.

رن الجرس وتردد صداه عبر الممرات فأفزعني. خبَّأتُ خطاب "جيني" في كمي، وخرجت إلى الحمام، ثم أغلقت الباب على نفسي. جلست وقرأته مجددًا:

عزيزتي "تاتي"..

طفح الكيل بي، لذلك أكتب لكِ. أتحبين هذا الورق؟ لقد سرقته من مطعم "كوبلاند"، أليس لطيفًا؟ جاء الطبيب وأعطاني إبرةً في ردفي. ووصف المزيد من الأقراص لأمي بسبب اكتئابها السخيف. أتعلمين ماذا؟ لم تتوقف عن الصياح لأسبوعين. زاد الأمر سوءًا بعد ولادة "مايكل"، وبالطبع هي غاضبة طوال الوقت. يا إلهي، لقد سئمت منها. سترين بنفسك حين تعودين للمنزل إن كنتِ لا تصدقينني. أردت أن أخبر الطبيب بكل ما يحدث هنا، لكني لم أفعل؛ لذا لا تقلقي. لا تعرفين ما يحدث لأنكِ لستِ هنا أبدًا، لكن الأمور قد ساءت حقًا في الأسابيع الأخيرة. إنهما أسوأ أسبوعين مررنا بهما في حياتنا. هل تذكرين طريقتها في القدوم إلينا حين تكون في نزاعٍ مع أبي؟ يا للقرف! لا أريد التذكر. حسنًا إنها لم تعد تفعل ذلك. لأنها الآن انتقلت للطابق الأعلى الذي بناه أبي

حديثًا، أي غرفتـي إن كنـتِ لا تمـانعين. وغرفتـكِ أيـضًا حـين تتعطفـي علينـا وتأتين. لذا لا أعرف أيـن يُفـترض بـكِ النـوم الآن. كنـت أنـام مـع "ديرديـري" لبعض الوقت، لكن لم أحتمل صخب أمي في الغرفـة المجـاورة، لـذا الآن أنـام عـلى الكنبـة (لا تخـبري أحـدًا وإلا سـأقتلك). بـأي حـال، لقـد صـنعت شـقةً سخيفةً لنفسها بالأعلى. إنها مجنونة خارجة عن السيطرة. أخذت غرفتي! وما زاد الطين بلة هو أن "ديرديري" جاءتها تلك الحالـة الخاصـة التـي تأتينـا كـل شهر (تعرفين ما أتحدث عنه)، بـالطبع أصـابتها حالـة مـن الهيـاج. اضـطررتْ للتعامل مع الموقـف وحـدي تمامًـا. ظلـت تجـري في كـل مكـان وهـي تلـوِّح بالفوطة الصحية في كل مكان أو تحاول وضع ضمادةٍ ظنًا منها أنها مجروحـة. سأخبرك بالتفاصيل حـين تعـودين للبيـت. عـليَّ فعـل كـل شيء بنفـسي الآن. البيت في فوضى عارمة. أزال أبي عن أمي مسؤولية المنزل وحملني إياها. حتى إنه أعطاني ساعته لأنني أقوم بعملٍ جيد. أتشعرين بالغيرة؟ هاها، أراهن أنكِ كذلك. على أي حال، أمي تكرهني الآن. لا يهم، فأنا أكرههـا أيـضًا، وأكـره أبي. كما أكرهك لأنـكِ تركتنـي هنـا بيـنما تـستمتعين بوقتـكِ في مدرسـتك الراقيـة الأنيقة. مع صديقاتك الراقيات الأنيقات. "لورا" التي أرادت منكِ قضاء إجـازة نصف العام في منزلها بدلًا من العودة لمنزلك، و"أوليفيا" ضخمة الوجه، وتلك الفتاة الأخرى البدينة ذات الشعر القصير كالفتيان، أظنها "كاساندرا" أو مهـما كانت.

مع إخلاصي..

"جيني"

ملحوظة: متى ستعودين للمنزل؟".

كوَّرتُ الصفحات وفركتها بين يَدَيّ مرارًا وتكرارًا حتى تكومت على قدمي. وقفتُ ونفضتُ جيبتي في المرحاض. شددت السيفون فتدفق الماء ومعه ورق اللافندر البنفسجي.

كادت عينا "لورا" تقفزان من مكانهما، بينما أخبرها عن خطاب "جيني". أمسكت بذراعي في غرفة الهوكي، وكلما أخبرتها أكثر اشتدت قبضتها على ذراعي.

قالت "لورا" إن "جيني" مجنونةٌ حتمًا كي تقول أكاذيب مكشوفة كهذه. قالت:

- يا لها من حقيرة، إنها حقيرةٌ وشنيعة. أنا سعيدة لأني لا أملك أخوات إن كن سيفعلن مثلها. كيف تجرؤ على التحدث بوقاحةٍ عن صديقاتك. أتعلمين ما مشكلتها؟

- ماذا؟

- إنها تغير منكِ.

- مني؟!

- نعم. إنها تحاول إفساد أمورك. إنها تغار لأنكِ أتيتِ إلى منزلي في نصف العام ولعبنا معًا. لقد استمتعنا بوقتنا، أليس كذلك؟

- بالطبع.

- أتعلمين ماذا كنت لأفعل لو أني مكانك؟

- ماذا؟

- كنت لأخبر أبي.

- لا أستطيع.

- عليكِ ذلك. إنها تستحق ذلك. أو فلتخبري أمكِ حتى. تخيلي ماذا ستفعل لو علمت أن "جيني" قالت ذلك الكلام!

- إممم أتخيل.

- لا تقولي إنكِ تصدقينها يا "كاري".

- أوه لا.

- أكاذيبٌ شنيعة من حقيرةٍ شنيعة.

- نعم، لطالما كانت كاذبة.

- لن أصدق أي كلمةٍ تقولها لو كنت مكانك.

- لا أفعل، لن أفعل.

- لو كنت مكانكِ لأخرجت كل هذا الكلام من رأسي تمامًا.

أغمضت عينيَّ بشدة، ونسيتُ كل ما قرأت.

***

جاء الكريسماس.

ورأيت أبي جالسًا في سيَّارته خارج المدرسة. جاء ليأخذني للمنزل.

أبي سكران. عيناه تائهتان، ويداه تمسكان الدريكسيون بقوة. كان يهز جسده على الكرسي، ثم أسند رأسه على الدريكسيون. بعدها أخذ يرفع ويُنزِل زجاج السيَّارة. كانـت إحـدى عينيـه نصف مغلقة، وكأنه يحاول معرفة كيف سيقود سيَّارته ما إن يبدأ بالتحرك بها.

علمت أنه سكران ما إن رأيته، لكنه استمر في إخباري بذلك. قال:

- لمعلوماتك أنا سكران.

- ماذا؟

- أنا سكراااان.

ثم مد يده إليّ وأخبرني أن أضربه عقابًا على فظاظته.

توجد شجرة كريسماس تتدلى من صندوق السيارة، تبدو كذيل ثعلبٍ كبيرٍ في الظلام. كما يوجد الكثير من أكياس اللحم على الكرسي الأمامي، وأكياس بها ديوك رومية في صندوقٍ في أرضية السيَّارة. هناك ديكٌ رومي آخر رقبته متدليه على الكنبة الخلفية. لا يزال الدم يقطر من منقاره.

اضطررت للجلوس في الخلف مع الديك الرومي. لا يوجد مكان لحقيبتي أيضًا. لذا خرج أبي واستغرق وقتًا طويلًا لوضعها في صندوق السيَّارة إلى جوار الشجرة. استغرق وقتًا طويلًا للغاية. وهوه دليلٌ آخر على أنه سكران، لأنه لا يكون بطيئًا هكذا في المعتاد.

تقول أمي دومًا: "إنه هكذا!"، ثم تفرقع إصبعيها وهي تتحدث عن سرعته.

كل ما فكرت به هو أنه من الجيد أننا بعيدون عن أي مكان به ناس، حتى لا يرى أحدٌ أبي وهو يدفع حقيبتي ويحشرها، بينما يسب ويلعن أو يحاول أن يكون ظريفًا ويقول أشياءَ غبية مثل أن الشجرة تعض يده.

منذ وقتٍ قليل، كنت غاضبة لأنه تأخر، كنت أشعر بالضجر بسبب جلوسي لساعاتٍ أمام النافذة الطويلة. قلت الكثير والكثير من "كل عام وأنتم بخير" للكثير من الفتيات، ثم قلت الفتيات وقلت معهن عدد المرات التي قلتها ثم لم يتبقَ أحدًا لأقولها لها. ما عدا الراهبة الخيَّاطة البسيطة التي تأتي كل بضع دقائق تسألني: "ألم يصل والدكِ بعد؟"، ثم تدعوني لشرب الشاي في قاعة طعام الراهبات، وتخبرني عن القداس الخاص الذي يقيمونه يوم الكريسماس، والترانيم الجميلة، والبسكويت بعد ذلك، والمداخن الكبيرة بطريقة كافية ليتمكن "بابا نويل" من النزول بداخلها دون عناء.

وكأنني سأقضي الكريسماس في المدرسة. وكأن أبي لن يأتي على الإطلاق.

أبي سكران. أخبرني ذلك للمرة المئة، بينما يقود ببطءٍ شديد ويهتز على مقعده. كان يشبه أولئك الأطفال في مدرسة "ديرديري" الخاصة. قلت له:

- أعلم يا أبي، لقد أخبرتني حوالي عشرين مرةً بالفعل. أنتَ سكران.

وهكذا تعرضنا لحادثٍ بالسيارة.

قال إن السبب هو الجليد الذي يُغطِّي الطريق، والبخار الذي يُغطِّي زجاج السيَّارة، وذلك الوغد "جاكي ماك" الذي كان يجدر به تركيب إطاراتٍ جديدة. ولا ننسى المغفل الذي وضع العمود في هذا المكان.

أفاقه حادث السيارة من حالة السكر قليلًا. استدار ليتأكد من أنني بخير. تحسس وجهي ورأسي وذراعيِّ ليتأكد من أن كل شيء بخير.

- أنا بخيرٌ يا أبي، كفى.

جعلني أحرك ساقيِّ وقدميِّ بعيدًا، ثم تفقد اللحم. ظل يقول: "حمدًا لله على اللحم، حمدًا لله على اللحم، حمدًا لله على اللحم".

عندما قفز خارجًا من السيارة عاد سريعًا كما اعتاد دائمًا أن يكون.

أخبرني أنه عليَّ الخروج أنا أيضًا، لكني أردت البحث عن قطعة صابون الورد التي سقطت من يدي حين اصطدمت السيَّارة.

فزت بها لحصولي على المركز الثالث في الصف. ظللتُ أشُمُّها منذ غادرنا المدرسة لكي لا أشم رائحة اللحم التي تملأ السيارة، ورائحة السيارة نفسها التي تشبه رائحة البار.

أردتُ فقط الشعور بها مجددًا في يدي، تلك الرائحة العطرة الخفيفة المغلفة بذلك الغلاف الجميل. صحتُ:

- لن أغادر من دون صابونتي.

صحت بذلك على الرغم من معرفتي أنه لا يهتم بها، حيث حصلتُ عليها لأنني جئت في المركز الثالث في الفصل.

عندما أخبرته قال:

- الثالث؟ الثالث؟ أهذا كل شيء؟ "جيني" دومًا تحصل على المركز الأول.

- لكن الحصول على المركز الثالث لم يكن سهلًا يا أبي. هناك الكثير من الفتيات الذكيات في فصلي. حتى إن بعضهن يتحدثن ثلاث لغات.

- لا فائدة من المركز الثالث، لا فائدة. الثالث فاشل. تحدثي معي حين تحصلين على المركز الأول.

ثم تعرضنا للحادث.

عندما قفز أبي من السيارة أخرجت تلك المرأة رأسها من نافذة الكوخ الذي على جانب الطريق وسألته إن كنا بخير. فصاح أبي مجيبًا:

- لم يتأذَ أحد، لم يتأذ أحد. هذا كل ما يهم.

- لا يمكنني المجيء إليكما فساقي في جبيرة.

- لم يتأذَ أحد.

- ماذا عن الصغيرة؟

- هناك الكثير من اللحم في الكرسي الأمامي لذا جلست الصغيرة في الخلف. حمدًا لله على وجود اللحم.

- لحم؟

- صناديق الكريسماس للزبائن وما إلى ذلك.

- أوه؟ وزوجي ليس هنا حتى.

- لا بأس يا سيدتي، نحن نشكرك بما فيه الكفاية. سنتدبر أمرنا.

أدخل أبي ذراعه من النافذة وقاد السيَّارة في خطٍ مستقيم إلى مكانٍ ظليلٍ على جانب الطريق بعيدًا عن العمود.

عادت السيدة تحدثنا:

- ليس لديَّ تليفونًا حتى، لكن على بعد منزلين هناك واحد. يمكنك المحاولة.

- لا تقلقي بشأننا. نشكركِ كثيرًا. سأتصل من القرية.

- وماذا عن اللحم الخاص بك؟

- سأعود لأخذه.

أغلق السيارة ثم فتحها مجددًا. سحب كيسًا من اللحم ونفض عنه الغبار وأخذ يفرده وكأنه قطعة قماش صغيرة. قال لي:

- انتظريني هنا.

رأيته يتحدث مع المرأة بصوتٍ منخفض ويعطيها كيس اللحم من النافذة.

عاد للسيارة وقال:

- هذا يكفي لإسكاتها. يبدو أنهم فقراء للغاية.

بدا سكران من جديد، لكن ليس كثيرًا. بدأ يسير نحو قرية "تشابلزود"، لم يكن يتعثر، ولكنه لم يكن يسير في خطٍ مستقيمٍ أيضًا. كان ينحني كل بضع خطوات ويصطدم بذراعي مما أثار جنوني.

قال:

- أنتِ ترتجفين. أتشعرين بالبرد؟ أتريدين معطفي؟

- لا.

- واثقة؟

- تلك سخافةٌ يا أبي، فمعطفك كبير للغاية.

- صحيح. هل أنتِ غاضبة؟

- لا.

- أظنكِ ستشين بي.

- لا.

- هل أنتِ جائعة؟ سأشتري لكِ شيئًا لذيذًا من مطعم السمك والبطاطس حين نصل للمنزل. ما رأيك بشريحةٍ لذيذةٍ ومليئةٍ بالعصارة من سمك الراي؟

- لا.

- لا لا لا.. أهذه هي الكلمة الوحيدة التي علمها إياكِ الراهبات في تلك المدرسة الفاخرة؟

اندفع داخل البار وبدأ يلفت انتباه الناس إلينا بالضجيج والصياح، ثم بدأ يتحدث عن الحادث والصدمة التي شعر بها، وطلب كأسين من البراندي.

حين أعطاه "البارمان" كأس البراندي رفعها عاليًا وأدارها ببطءٍ في الهواء، وكأنه يريد أن يراها كل من في المكان. ذكرني بما يفعله القس في القداس.

أخذ يقول:

- نخب الصدمة، نخب الصدمة.

تجرع البراندي دفعةً واحدة. كشَّر وجهه وهز رأسه بقوة. أعاد الكأس إلى الترابيزة. وكرر الأمر مجددًا مع الكأس الثانية.

دخلتُ الحمام ورأيت بقعة دمٍ على وجهي. لمست الدم بطرف إصبعي وتذوقته. حين غسلت وجهي اختفى الدم تمامًا دون أدنى أثرٍ لجرحٍ صغير أو خدشٍ. نظرتُ إلى قطعة الصابون ورأيتُ دمًا على غلافها الجميل.

استغرقت دقيقة لأدرك أنه ليس دمي، وإنما دم الديك الرومي. كان الدم قد دخل في فمي عندما اصطدمنا. أخرجت لساني ووضعته تحت ماء الصنبور. أصدرت صوتًا يشبه الصوت الذي أصدره حين أكون مريضة "جاااااااااغ".

حين خرجتُ وجدتُ أبي سكران مجددًا. سكران حتى أشد عن ذي قبل. قال:

- سنعود للمنزل الآن. هذا البراندي المعتق صعد إلى رأسي مباشرةً.

ثم التفت للـ"بارمان" قائلًا:

- لا أمانع، لكني لم أتذوق قطرةً طوال اليوم. مع أني تناولت أربع كؤوسٍ هنا، فقد كنت مصدومًا. لا تنسَ الآن ما ستقول إذا سألك أحدهم عني.

سأل "البارمان":

- أهناك شخصٌ محدد؟

- أظنك تعرف من أقصد.

وضع أبي جنيه تحت كأس البراندي الفارغة ثم دفعها نحو "البارمان" عبر البار. أخذ "البارمان" الكأس وأومأ برأسه ثم استدار مبتعدًا.

أخذنا ذلك الرجل الذي يعرفه أبي وزوجته النحيفة الضئيلة في سيارتهما.

جلس أبي في الخلف بجواري. تلك هي المرة الأولى التي جلس فيها أبي في الخلف معي، وأيضًا المرة الأولى التي يجلس فيها أبي في سيارةٍ يقودها غيره، والمرة الأولى أيضًا التي أشعر فيها أنه ليس المسؤول.

الرجل والمرأة كانا سكرانين قليلًا أيضًا، لكن ليس بقدر أبي. لقد نال المركز الأولى في شدة السكر، تأتي المرأة في المركز الثاني، أمَّا الرجل فحصل على المركز الثالث الفاشل.

لدى المرأة حاجبان عاليان يكادان يلمسا منبت شعرها، مما يجعلها تبدو كالمجنونة. هناك خدوشٌ سوداء على أسنانها البارزة. كانت تجلس على الكرسي وتعطي ظهرها للنافذة، ودخان سيجارتها يهب نحو أبي. كانت إما تضحك بلا سبب أو تسأل أسئلةً غبيةً حقًا. عندما أجيب على أحد أسئلتها الغبية تصاب بصدمةٍ كبيرة. ثم تتحدث وكأنها لا تصدقني.

قالت المرأة:

- انظرا إليها بزيها الأزرق. ألا تبدين رائعة وأنتِ جالسةً بجوار أبيكِ. الإله يحبك. كم عمرك الآن؟

- أكاد أكون في الثانية عشرة تقريبًا.

- الثانية عشرة تقريبًا؟ مستحيل! هل أنتِ أصغر إخوتك؟

- كلَّا، أنا الوسطى.

- الوسطى؟ أواثقة؟

- حسنًا.. لم أعد في الوسط تمامًا بعد ولادة "مايكل"، لأنني لدي أختان كبيرتان وثلاثة إخوة صغار. لكني اعتدت أن أكون في الوسط.

- لكنك لستِ كذلك الآن؟

- لا.

- أترين؟ علمتِ أنكِ كنتي تخدعينني. في أي صفٍ أنتِ؟

- السادس.

- السادس؟ مستحيل. هل تؤمنين بوجود "بابا نويل"؟

- لا.

- لا؟ بل تفعلين أيتها الكاذبة الكبيرة.

ثم بدأ أبي يتصرف بغباءٍ شديد أيضًا. تحدث وهو سكران فتبعثرت الكلمات بين شفتيه. قال وهو يربت بيده على رأسي:

- أترين تلك الفتاة الصغيرة، إنها أفضل فتاة صغيرة في العالم. لا تكذب أبدًا. سأخبركِ شيئًا الآن، هل أفعل؟ هل أخبركِ شيئًا الآن؟ إن سافرتِ إلى كل دولةٍ.. مثلًا.. العالم كلها بمعني الكلمة، لن تجدي أفضل منها؟ أتعرفين ما

هي؟ هل أخبركِ الآن ما هي؟ إنها رفيقة أبيها، هذا ما هي عليه. إنها رفيقته القديمة المفضلة. أعز رفاق أبيها.

- أفضل رفاقك؟ أتمازحني؟

- عليكِ أن تعلمي أيضًا أنها في إجازة الكريسماس.

- حقًا؟ هذا غير صحيح. أطفالي سيأخذون إجازتهم الأسبوع المقبل.

- إنها في مدرسةٍ داخلية لذا إجازتها أطول.

- مدرسةٌ داخلية؟ لا أصدقك. مدرسةٌ داخلية؟

وصلنا لسيارة أبي. قال أبي للرجل وهو يناوله المفاتيح:

- سأساعدك قليلًا، قليلًا فقط...

- أعرف، فأنت منهكٌ تمامًا.

- بالضبط.

يحتاج الأمر رجلًا قويًا ليفرغ سيارة أبي، فهو سيضطر للدخول والخروج إلى البرد كل بضع دقائق. لكن، كل مرةٍ يظن نفسه انتهى يذكره أبي بشيء آخر.

بعد إخراج اللحم من الكرسي الأمامي والديوك الرومي من الصندوق، هناك الأوراق التي في "التابلوه" والأظرف التي تحت كرسي السائق. وبعد الأظرف التي تحت كرسي السائق، هناك حقيبتي التي في صندوق السيارة.

يستمر بالدخول والخروج بين سيارة أبي وسيارته، نافثًا سحبًا بيضاء مع أنفاسه بسبب البرد. قال لأبي:

- سأضطر لترك الشجرة.

عاد لسيارته وأدار المحرك، ونفخ في يديه ليتدفأ ثم أمسك الدريكسيون بعدما ظن أنه انتهى أخيرًا.

قال أبي:

- لا بأس، اترك ذلك الشيء اللعين.

صرخت المرأة باستهجان:

- تقول "اترك الشيء اللعين"؟! أتسمعينه؟ إنه يقول "اترك الشيء اللعين! اترك الشيء اللعين!" ماذا عن الأطفال المساكين؟ ماذا عن الكريسماس الخاص بهم؟

- سأعود لإحضارها أو سأحضر غيرها. بأي حال ما زال من المبكر جدًا إحضار الشجرة، تبًا. ما زال هناك أسبوعٌ على الكريسماس. ما زلنا مبكرين جدًا. هل أنا محقٌ أم مخطئ؟

ردت المرأة:

- هل أنت...

بدأ الرجل في القيادة.

قال أبي فجأة:

- مهلًا، مهلًا، مهلًا.

- ماذا؟

- الديك الرومي في الكرسي الخلفي.

- ماذا؟

- كان هناك ديكٌ روميٌ آخر في الخلف. لا بد أنه سقط على الأرض. إنه لمدير البنك. مهما يكن إيَّاك ونسيانه.

- حسنًا، ماذا تظننين بالضبط؟

عندما أحضر الرجل الديك الرومي لم يأخذه إلى صندوق سيارته. لقد ذهب إلى مقعد الراكب الأمامي ونقر على النافذة. انزعجت المرأة لأنها ستضطر للالتفاف ولن تستطيع النظر إلى أبي كل دقيقة. قالت:

- ماذا تريد؟

- افتحي النافذة لثانية. هيا، افتحيها بسرعة.

حالما فتحت النافذة سقط وجه الديك الرومي عليها وكأنه يشم شعرها.

ظل الرجل يخيفها وهو ممسكٌ بعنق الديك.

بدأت المرأة في الصراخ قائلة:

- ابتعد عني. قلت ابتعد بعيييييدًا.

عجز الرجل عن التوقف عن الضحك وهو يميل على غطاء مقدمة السيارة ليلتقط أنفاسه.

وضع الرجل منقار الديك الرومي على الزجاج الأمامي للسيارة وأخذ ينقر به عليه، وقال:

- هو هو هووو أهناك ديكٌ رومي عجوزٌ هنا؟

جن جنون المرأة وصرخت في وجهه:

- أيها الوغد المجنون، أيها السكّير اللعين المجنون!

عندئذٍ توقف الرجل عن الضحك، وذهب ليضع الديك الرومي في صندوق السيَّارة.

عادت المرأة تقول:

- ذلك السكّير اللعين. لقد عالجناه مرتين السنة الماضية من إدمان الكحول، والآن انظروا إليه. لقد غرق في الخمر مجددًا. كان عليهم معالجة عقله أثناء ذلك.

نقر أبي على رجلي ثم أشار برأسه إلى مقدمة السيارة ونظر للأعلى وهمس لي:

- لا تهتمي بهما. إنهما مجنونان، كلاهما كذلك.

نقرني أبي مجددًا وقال:

- لم يكن حادثًا خطيرًا، بل ارتطامًا خفيفًا.

- نعم يا أبي.

ثم بدأ يسترضيني مجددًا ويقول:

- تعرفين أن أباكِ ما كان ليؤذيكِ قط، صحيح؟

- أعرف يا أبي.

حين استدارت المرأة كان حاجباها المرفوعان مشوهين على جبينها، مما جعل مظهرها مرعبًا بحق. شعرت بضحكةٍ كبيرةٍ تندفع صاعدةً في حلقي، لكن حالما أطلت النظر فيها تراجعت ضحكتي.

ركب الرجل وصفق باب السيَّارة خلفه. قالت المرأة وهي تشير بإصبعها في وجهه:

- أنت مجرد سكّير. سكّير قذر.

- اصمتي، ممكن؟ كانت مجرد مزحة. مزحة!

سألتني:

- إنه مقززٌ، أليس كذلك؟

- لا أعرف.

أخيرًا بدأنا بالقيادة، عدنا عن طريق القرية ومررنا بالبار الذي شرب فيه أبي البراندي. رأيتُ الجارسون عند النافذة يعلق صورة المسيح. على النافذة الأخرى هناك شكلٌ مقصوصٌ من الورق المقوى يصور "بابا نويل". كان يغمز بعينه، ويحمل حقيبةً على كتفيه وتخرج منها زجاجات الخمر. خلف "بابا نويل" أعلى النافذة هناك تليفزيون البار المثبت على الحائط. فيه أشخاصٌ صغار يجرون هنا، وهناك شخصٌ رأسه كبير يتحدث، والمزيد من الأشخاص الصغار.

انعطفنا في طريقٍ مختصرٍ مظلم. كنا قد اعتدنا اللعب فيه أثناء عودتنا من المدرسة. الأكواخ مكدسةٌ جوار بعضها، وهناك رجلٌ يقف في الزاوية ويلوح لنا. ثم خرجنا مجددًا إلى الطريق الرئيسي وعاد النور فجأة يسطع في عينيّ.

يترنح رأس أبي على ظهر الكرسي، يحاول أن يُبقي عينيه مفتوحتين، لكني أعرف أنه نائمٌ من صوت تنفسه. لم تمانع المرأة إن كان نائمًا، لكنها ظلت تحدق به بأي حال، بينما تشعل سيجارةً تلو أخرى. قالت لي:

- انظري إليه. إنه معتوه. يا إلهي، انتظري حتى تراه أمك.

ثم بدأت المرأة تضحك كالمجنونة وهي تتخيل ذلك الموقف الكوميدي.

حتى استيقظ أبي وهو يصيح وينعت أمي بالفاسقة.

لم يقل اسم من ينعته، لكني فهمت ما يقصده. كما أني أعرف أنها أسوأ سبَّة في العالم، حتى أنها كانت كافيةٌ لجعل المرأة النحيفة تتوقف عن الضحك وتحدق فيه بشدة. على الرغم من أنها لم تمانع كل السباب الذي قيل في السيارة حتى الآن. كانت تسمعه وحتى تقول معظمه بنفسها. لكنها الآن تمانع بشدة.

كرر أبي:

- إنها مجرد فاسقة. ما كنت لأصبح في هذه الحالة لولا تلك الفاسقة العفنة القذرة.

ضاقت عيناه المرأة وحبست دخَّان السيجارة لوهلةٍ في فمها ثم استدارت معتدلةً إلى الأمام.

ذهب أبي في النوم مجددًا.

قال الرجل في الكرسي الأمامي للمرأة النحيلة:

- لا تهتمي بما يقوله، إنه سكران.

ما كان عليه قول ذلك.

ربت الرجل على قدم زوجته، وهو يقول:

- إنها مجرد كلمة، مجرد كلمة.

صعدنا تلًا أسود. كانت السماء تمطر مطرًا باردًا وخفيفًا، تنحدر قطرات المطر على الزجاج، بدت كالآيس كريم وهو يسيح. أغلقتُ عينيِّ وتظاهرت بالنوم. ظللت أستمع إلى صوت مساحات الزجاج.

***

وصلنا إلى البيت. المنزل غارقٌ في الظلام وكأن الجميع تركوه أو أنهم نائمون. بدا الأمر غريبًا إلى حدٍ ما. لأنه على الرغم من الوقت متاخر فإنه لا يزال باكرًا كفاية كي تبقى أمي و"جيني" مستيقظتين لمشاهدة التليفزيون. ظللت أحلم بمشاهدته طوال الأسبوع الماضي.

ما زال أبي نائمًا. كدت أوقظه، لكن الرجل قال لا بد أن أتركه حتى يفرغ السيارة من الأغراض ويضعها في الصالة. ثم فتح الباب الأمامي للمنزل بمفتاح أبي.

قال الرجل: "ها نحن ذا مجددًا"، بينما يتجه نحو صندوق السيارة. شعرت بالأسف على الرجل ولم أرغب في البقاء مع زوجته النحيلة، لذا نزلت لأساعده.

لكن أولًا، انتظرتُ حتى وضع الديك الرومي في الصالة، في حال توقَّع أن أحمله أو في حال قام بالمقلب السابق مجددًا.

لم يستطع الرجل إيقاظ أبي، لذا اضطر لحمله وهو نصفُ نائمٍ إلى داخل المنزل، فبدا كدميةٍ كبيرة. كان رأس أبي مُدلى على صدره وكأن رقبته مكسورة. أخذ يطوح ذراعه لأعلى بين حينٍ وآخر ليسند نفسه على الحائط، حتى عندما كان بعيدًا عن أي حائط، كان يطوِّحُ ذراعه لأعلى.

قلت للرجل حين أدخل أبي الصالة:

- إنه لا ينام في الأعلى. غرفة أبي وأمي بالأسفل هنا، عبر غرفة المعيشة ثم الباب على اليسار.

حمدًا لله على ذلك بكل حال.

هل أحضر أمي أولًا؟

أمك؟ كلا، لا تزعجي نفسك.

انتظرتُ في الصالة، بينما يضع الرجل أبي في السرير. ثم نظرت أعلى السلم إلى الغرفة العليا، وبدأت أفكر في خطاب "جيني" مجددًا. انفتح الباب بحدة وظهرت أمي. لم أرَ وجهها. فتحتُ فمي لأناديها.

لكنها أغلقتْ الباب بعنف قبل أن أتمكن من نطق كلمةٍ واحدة.

حين عاد الرجل إلى الصالة مال ناحيتي، وقال إنني فتاةٌ طيبة، ثم أخبرني أن أبي ليس رجلًا سيئًا. قلت له:

- أعلم ذلك.

- بالطبع تعلمين. الأمر فقط أن الأحوال ليست جيدة هذه الأيام. لذا لا تلوميه إن...

- إن ماذا؟

- لا شيء.

ثم قال إن معه شيئًا من أجلي.

أولًا أعطاني مفاتيح أبي، ثم أعطاني جنيهًا كاملًا لي وحدي. أخبرته بأنني لا أستطيع أن آخذ الجنيه، لكنه أصر قائلًا:

- لا تخجلي، خذيه، هيا خذيه. إنه هدية الكريسماس. مني إليكِ.

ثم وضع الجنيه في جيبي.

تسللت أضواء الشارع عبر زجاج الفراندة، ولأول مرةٍ أرى وجهه بوضوح. على الرغم من معرفتي لهيئته وصوته بسبب الوقت الطويل الذي قضيناه معًا في

السيارة نفسها، شعرت وكأنني أقابله للمرة الأولى. فكرتُ لوهلة في إخباره عن الجائزة التي تلقيتها لحصولي على المركز الثالث في الفصل. لكنني في النهاية قلت:

- شكرًا جزيلًا على الجنيه.

وقفتُ عند الباب الأمامي ولوحت للرجل. لوَّح لي الرجل. عندما وصل للبوابة فتح نافذة سيَّارته وأخرج رأسه وقال:

- كل عام وأنت بخير يا "كارولين"!

- كل عام وأنت بخير.

لم تبدِ زوجته النحيلة أي رد فعل تجاهي.

لم أكن واثقة مما علي فعله الآن، فالمنزل غارقٌ في الصمت والظلام.

معدتي تقرقر، وحلقي جاف. المطبخ على بعد خطوات قليلة، التليفزيون بجوار الباب في غرفة المعيشة. أمي أعلى السلم. لكن...

خلعت حذائي وجلستُ على حقيبتي وانتظرت.

سمعتُ صوتًا يهمس من آخر الصالة:

- "تاتي!".

استدرتُ فرأيتُ ظل "جيني".

- "جيني"! كدتُ أموتُ فز...

- اخفضي صوتك. تعالي هنا، تعالي هنا.

كانت تختبئ في المنطقة الخالية تحت السلم. كانت تلك المنطقة جزءًا من المطبخ القديم، لكنها صارت الآن جزءًا من الصالة الواسعة الجديدة. على الرغم من ذلك، لا تزال بعض معالم المطبخ القديمة باقية، مثلًا؛ لا تزال المطبقية

معلقة على الحائط، وضلفتها مفتوحة، وماسورتي صنابير الحوض القديم تخرج من الحائط، أمَّا الغسَّالة القديمة فقد تم وضعها في الفراغ أسفل السُلَّم. وقد انحشرت "جيني" خلفها. سألتني وهي تفسح لي مكانًا جوارها على الوسادة المنفوشة:

- من كان ذلك الرجل؟

جلستُ وأجبتها:

- لقد أوصلنا للمنزل. أوه "جيني" انتظري حتى تعرفي بشأن أبي...

- أخفضي صوتك.

- أين الجميع؟

- نائمون.

- رأيت أمي في الطابق العلوي. أهي حقًا...؟

- أمي؟ انتظري حتى تعرفي بشأن أمي.

بدأت "جيني" تحكي لي عن أمي وشقتها في الأعلى. وكأنها تتحدث عن شخصيةٍ في كتابٍ أو فيلمٍ شاهدته في التليفزيون. وكأن الأمر لا علاقة له بنا، بل هي قصةٌ نحكيها في الظلام.

أخذت أمي الكاسيت في شقتها وراديو الترانزستور الأحمر الذي تتركه مفتوحًا طوال الليل. حتى إن لديها موقد كيروسين لتعد طعامها، كما حوَّلتْ أحد الدواليب إلى خزانة مطبخ. وضعت علب الطعام المحفوظ في الرف العلوي. لديها أيضًا كوب وطبق ووعاء وبعض من أدوات المائدة.

كما تضع كوبًا وطبقًا من البلاستيك من أجل "مايكل" لأنه الوحيد المسموح له بالدخول.

يكره "مايكل" البقاء في شقة أمي طويلًا، على الرغم من أنه يطرق الباب بنفسه ليدخل. إنه ينسى أن الخروج ليس سهلاً كالدخول. حين تسمح له أمي بالدخول فهذا يعني أنها تريد بقاءه، لكنه يكره البقاء طويلًا بالداخل. نستطيع سماعه وهو يمشي عندها بالداخل ثم يبدأ بطرق الباب للخروج. بعد قليلٍ من الوقت يبدأ بالصراخ والبكاء حتى تفتح أمي الباب مجددًا وتلقيه خارجًا.

- تلقيه؟!

- حسنًا...

- أحقًا تلقيه؟

- نوعًا ما، إنها تدفعه خارجًا فقط.

إذا ذهب أحدٌ إلى غرفتها عليه الطرق أولًا. لكن لا أحد يزعج نفسه بالذهاب إلا إذا كانت مطلوبة على التليفون أو ما شابه. أحيانًا لا ترد، وأحيانًا تفعل.

إذا دخلت غرفتها ستشم رائحة غريبة تشبه رائحة أقلام الرصاص. تقول "جيني" إنها رائحة شراب الفودكا.

تعرف "جيني" ذلك لأنها انتظرت ذات مرة حتى تخرج أمي، ثم دخلتْ "جيني" من النافذة، ووجدت كل تلك الزجاجات الفارغة تحت السرير. زجاجتان كبيرتان، وثلاث زجاجات متوسطة الحجم، والكثير من الزجاجات الصغيرة.

استطاعت الدخول من النافذة لأن قفل باب الغرفة يشبه ذلك الذي في باب المنزل الأمامي. إن أردت فتحه من الخارج عليك إما أن تحصل على المفتاح أو تكسره بقدمك. مثلما فعل أبي ذات مرة حسب كلام "جيني".

- أبي كسر الباب؟

- نعم، واتصلت أمي بالبوليس.

- البوليس؟! البوليس جاء هنا؟

- نعم، البوليس. لا تبدئي بالبكاء، فأنتِ لم تكوني هنا حتى.

- أعلم. لكن...

- لا تعلمين. لِمَ تكونين حتى هنا. لم تأتِ إلى هنا منذ سبتمبر الماضي.

- أعلم، آسفة. كان عيد ميلاد "لورا" وطلبت مني الحضور في إجازة نصف العام. وأنا...

- هذا لا يهم الآن.

قالت "جيني" أن أمي أرادت أن يقبض البوليس على أبي لكنهم لم يفعلوا. قالوا إن كليهما مسؤول، وإن عليهما الخجل من أنفسهما أمام أطفالهما. رحل البوليس.

حين اتصلت أمي بالبوليس كانت سكرانة، ولكن عندما وصلوا كانت قد تخلصت من سكرها ذلك. قالت "جيني" إنها على الأرجح دخلت الحمَّام الموجود في الدور العلوي وأجبرت نفسها على التقيؤ بأن وضعت إصبعيها في حلقها.

كان أبي لا يزال سكران إلى حدٍ ما، لذا عنفوه أكثر منها.

بعد مغادرتهم، جلس أبي على الكنبة لوقتٍ طويل واضعًا كفيه على وجهه. ثم نهض وذهب لسريره. أختي سمعَت أمي وهي تجر الدولاب خلف الباب كي لا يفتحه أحد. وفي اليوم التالي أصلحت القفل.

- يا إلهي. أبي المسكين.

- أبي المسكين؟! لا تضحكيني. كلاهما أسوأ من الآخر، حتى البوليس عرف ذلك. بأي حال أنتِ دومًا تقفين في صفه كحيوانه الأليف.

- وماذا عنكِ؟ أنتِ تفعلين المثل مع أمي.

- كلَّا، لا أفعل. أنا فقط أتظاهر بذلك لأبتعد عن المتاعب. لأني لست غبيةً مثلك ومثل "براين". لكن أنتِ؟ أنتِ حيوانه الأليف بالفعل. دومًا تذهبين معه

في كل مكان وتتركينني هنا بمفردي، على الرغم من أنني أكبرك بعامين. لطالما فعلتِ ذلك منذ الصغر.

- كنتِ مريضةً طوال الوقت. كنت ستصبحين حيوانه الأليف أيضًا لولا ذلك.

أخرجت "جيني" جهاز استنشاقها من جيبها، ورجته ثم وضعته في فمها. حبست أنفاسها لعدة ثوانٍ، وعندما أخرجتها، تحدثت بصوت حاد قليلًا، قالت:

- حسنًا، لن أكون حيوانه الأليف الآن حتى لو دفعتِ لي.

ثم أكملت حديثها عن أمي.

قبل أن تنتقل أمي إلى الشقة الجديدة في الدور العلوي، هربت لمدة أسبوعين. ثم أخرج أبي "جيني" من المدرسة لتكون مسؤولةً عن شؤون البيت. حين عادت أمي أمرت "جيني" بإخراج أشيائها من الغرفة، ثم حوَّلتها إلى شقة. لم يعرف أحدٌ إلى أين ذهبت أمي، لا "أليس" ولا العمة "سال"، ولا حتى خالاتي. اتصل أبي بهن جميعًا ثم ذهب لمنازلهن ثم اتصل بهن ثانيةً. لم يعرف أحد. ولا يعرف أحدٌ حتى الآن. فقط أمي تعرف.

- لكن لا بد أن الخالات يعلمن ماذا يحدث الآن؟

- قليلًا. تخبرهن أمي بما تريدهن أن يعرفن فقط. مثل كسر أبي للباب بقدمه، والخلافات. إنها تخبرهن دومًا عن الخلافات، لكنها تخبرهن فقط ما يقوله هو ولا تخبرهن ما تقوله هي.

- حسنًا، لمَ لا تخبرينهن أنتِ إذًا؟

- هاه! وكأنهن سيستمعن. بأي حال لا يمكنك إخبارهن عن النزاعات الآن.

- لمَ لا؟

- لأن النزاعات مختلفةٌ الآن.

- كيف؟

- إنها كذلك فقط.

عندما تريد أمي كوبًا من الشاي، تملأ الإبريق من الحوض في الحمام العلوي، ثم تسخنه على موقد الكيروسين الخاص بها. بالكاد تدخل إلى المطبخ الجديد، ماعدا حين ترغب في شيء من الثلاجة. إنها حتى لم تعد تطهو. ليس منذ أن توقف أبي عن إعطائها المال، لأنه يقول إنها تنفقه فقط على الخمر.

- أوه "جيني"، هذا فظيع!

- كلَّا، ليس كذلك. انظري.

أخرجت "جيني" مصباحًا كبيرًا من خلفها وأشعلته. انتشر ضوء رقيقٌ تحت السُلَّم، ثم سحبت ذلك الحذاء الطويل من الزاوية البعيدة.

- لمن هذا؟

- لا أعرف، ربما "جاكي ماك" على الأرجح. لقد وجدته في الجراج.

- ماذا تفعلين به؟

- أيمكنكِ الانتظار؟ هاكِ، أمسكي المصباح.

أدخلت يدها في الحذاء وأخرجت سجائر وعلبة كبريت.

- هل تدخنين؟

- وماذا تظنين أنني أفعل بهذه الأشياء إذًا؟

- ماذا عن الربو الذي تعانين منه؟

رأيتها في ضوء المصباح تهز كتفيها بعدم اكتراث.

عادت لأسرارها. ثانيًا، قصاصات الورق التي تكتب عليها ملحوظاتها.

قالت "جيني":

- لم أعد أزعج نفسي بها. أنا فقط أخفيها في حال وجدها أحد. ولأن أبي يبحث في سلة المهملات عن زجاجات أمي كي يبدآ شجارًا جديدًا. يا إلهي، لو أنكِ فقط رأيته يبحث في المهملات مثل المتشرد. لذا لا أستطيع رميها.

أعادت يدها إلى داخل الحذاء وأخرجت قطعة كبيرة من الشوكولاتة.

- أهذه...؟

ناولتني إياه قائلةً:

- خذي.

- أشكركِ، أكاد أموتُ من الجوع.

- على أي حال، لا تهتمي بكل ذلك الهراء. هذا ما أردت أن أريكِ إياه حقًا.

أخرجت حزمة نقودٍ كبيرة.

- لقد ادخرته من مال إدارة شؤون المنزل. إنه كثير، صحيح؟ حينما يمتلئ الحذاء عن آخره، سأهرب بعيدًا. لن أكون مثل أمي أيضًا، سأصمد لأكثر من أسبوعين. سأصمد للأبد.

بدأتُ في أكل الشوكولاتة ونسيت بشأن كل شيء، كل ما يحدث خارج مخبأنا تحت السُلَّم، وأمي في شقتها العلوية، وأبي وحده في غرفة النوم بالأسفل. نسيت أن أخاف مما سيحدث تاليًا. لأني لست وحدي الآن، أنا مع "جيني". نحن رفيقتان للمرة الأولى على الإطلاق، رفيقتان. "جيني" تأتمني على كل أسرارها، وتحدثني دون إهانات، وتجعلني أشعر أني ناضجةٌ نوعًا ما. ذلك الشعور بالسعادة ملأني، الشوكولاتة في يدي و"جيني" أمامي، أثارني شعوري بالنضوج، وذلك الظلام الغامض حولنا كان له جاذبيته.

حتى نهضت "جيني" عن الوسادة المنفوشة وقالت إنه حان وقت النوم.

- ألا يمكننا البقاء هنا يا "جيني"؟ ألا يمكننا النوم هنا وحسب؟

- لا، لقد حاولتُ ذلك من قبلًا. ستستيقظين بآلام في ساقيكِ ووجع في عنقكِ.

- لكن أين سننام؟

- على الكنبة.

أعدت "جين" فراشًا من المعاطف الشتوية على الكنبة. نمت بزيي المدرسي وحاولت الاسترخاء. لكن شعرتُ بالحكة في ساقاي بسبب صوف المعطف وجورباي. خلعت جوربيٍّ، وشعرت بقدميٍّ رطبتين. أحسست بألمٍ في ساقَيٍّ بسبب البرد. لذا قامت "جيني" بتدفئة قدَمَي بقدميها.

تحدثنا في الظلام. سألتها:

- كيف تختلف خناقاتهما الآن؟

- لا أعرف. إنها كذلك فقط.

- نعم، لكن كيف؟

- من الصعب الشرح. إنهما يقولان أشياءَ غريبة.

- مثل ماذا؟

- أنتِ تعرفين.

- أتعنين مثل السباب؟

- نعم، وأشياء أخرى أيضًا.

- كنتِ معتادةً على السب دومًا. أتذكرين؟ أما زلتِ تسبين الآن؟

- أحيانًا، حين أمرح.

- سب أبي أمي عندما كنَّا في السيارة.

- ماذا قال؟

- قال إنها فاسقة.

- نعم، سمعت تلك السبة من قبل. إنها لا شيء. الكلمات الأخرى أسوأ.

- أي كلمات؟

- يسبها بكلامٍ بذيء، وترد هي عليه. أتعلمين شيئًا، لن أقرب الخمر أبدًا ما دمت حية.

- "جيني"؟

- ماذا؟

- ولا أنا أيضًا.

بعد وهلةٍ، قامت "جيني" لتشغل التليفزيون، وظلت تضغط الأزرار لتغير القنوات حتى وجدت ما أرادت. رجل وامرأة يرقصان ويغنيان في غرفة فندقٍ هائلة. يوجد كلبٌ جميلٌ يجري حولهما. أظن أن اسم الرجل ربما يكون "داني كاي"، لا أعرف اسم السيدة أو الكلب الجميل.

شاهدنا العرض بضع دقائق حتى بدا غبيًا أن نشاهد صورةً بلا صوت. إلى أن بدأت "جيني" تلعب تلك اللعبة. جعلت من "داني كاي" أبي وجعلت من المرأة أمي، وتحدثت على لسانيهما مستخدمةً الكلمات التي يقولها أبواي في خلافاتهما الجديدة.

لا أصدق أبدًا ما يقوله أبي وأمي في الخلاف. بعض الكلمات سمعتها من قبل، لكني لم أفهم أبدًا معناها. أما الآن فأنا أفهمها نوعًا ما. حتى الكلمات التي لم أسمعها من قبل لها وقعٌ غريب يقشعر له بدني وأكاد أبكي، لكني لا أفعل. بدأت أضحك عوضًا عن ذلك. "جيني" مضحكةٌ للغاية في طريقة أدائها للأصوات، وقدرتها على تناغم صوتها مع الصورة.

يدور الرجل والمرأة في التليفزيون. يرقصان، ثم يبتعدان عن بعضهما، ثم يقتربـان مجـددًا، وتلك الابتسامات المجنونة على وجهيهما. تلتمع أعينهما، يمدان أذرعهما ثم يقومان بثنيها، كل هذا و"جيني" تتحدث على لسانيهما بصوت أمي وأبي.

ضحكنا بـشدةٍ مـن دون أن نـتمكن مـن التوقـف. ضـحكنا بـشدةٍ لدرجـة أني اضـطررت لدخول الحمام.

حين عدت لغرفة المعيشة وجدت التليفزيون مطفأً والغرفة غارقةً في الظلام من جديد.

سمعت صوت "جيني" آتيًا من طرف الكنبة. قالت:

- كنت أدعو باستمرارٍ أن يموتا. كنت أدعو أن يركبا السيارة معًا وتتحطم بهما. ثم يموتـان ببساطة.

- لا تقولي ذلك يا "جيني".

- حسنًا، لم أعد أدعو بعد الآن.

- ما الذي أوقفك؟

- أولًا، لأنهما لا يركبان السيارة معًا أبـدًا. ثانيًـا، لأني لا أؤمـن بوجـود الـرب. النـاس فقـط تختلق الأمر.

أعلم أن "جيني" متعبة، يمكنني الشعور بذلك في صوتها. لكني حاولت إبقاءها مـستيقظةً بإخبارها عن أبي وحادث السيارة، والمرأة النحيلة، والرجل الذي اتضح أنه طيبٌ جدًا.

- لقد أعطاني جنيهًا. يمكنك أخذه وإضافته لمدخراتك إن أردتِ.

تمتمت "جيني":

- لا، احتفظي به.

- هل أصف لكِ بيت "لورا"؟

- غدًا.

ثم حاولت أن أسألها المزيد من الأسئلة. لكن "جيني" كانت في غاية التعب، لذا ردت بإجاباتٍ ناقصة هذه المرة.

- "جيني"؟

- ماذا؟

- هل تدخنين هنا في المنزل؟

- لا، فقط عندما أتغيب عن المدرسة.

- أنتِ تتغيبين عن المدرسة!

- همم.

- وكيف الأمر؟

- هراء.

- حسنًا، مع من تتغيبين؟

- لا أحد.

- هيا يا "جيني"، أخبريني.

- غدًا، أنا متعبة.

- هيا، الآن. أرجوكِ.

- حسنًا... بعدما أخرجني أبي من المدرسة لمدة أسبوعين لم أشعر برغبةٍ في...

- ماذا؟ لم تشعري برغبةٍ في العودة؟

- همم.

- وأين تذهبين؟

- أحيانًا أجلس في الكنائس وحسب، لكن...

- لكن ماذا؟

- القس دومًا يلحظني.

- وماذا يفعل؟ أيطردك؟

- لا. فقط قد يسألني ماذا أفعل.

- أهذا كل شيء؟

- إنه يزعجني أيضًا. يسألني إن كنت أرغب في الحديث أو في كوبٍ من الشاي. لذا معظم الوقت الآن صرت...

- ماذا؟

- أتمشى.

- أين؟

- البلدة.

- أين في البلدة؟

- أي مكان. أخفضي صوتك.

- وماذا لو رأيتِ شخصًا تعرفينه؟

- أتفاداه.

- أين تذهبين أيضًا؟

- ذات مرةٍ ذهبت إلى مدرستك.

- مدرستي! كيف؟

- ركبت أتوبيسين وصعدت التل سيرًا.

- لكن لماذا؟

- لا أعرف.

- ماذا فعلتِ حين ذهبتِ؟

- نظرت فقط.

- ماذا رأيتِ؟

- لا شيء. أخفضي صوتك.

- "جيني"، خمني ماذا؟

- ماذا؟

- سأقضي ثلاثة أسابيعٍ هنا.

- ماذا؟

- ثلاثة أسابيع، تلك هي مدة إجازتي. سأساعدكِ في كل شيء. في إعداد الطعام وكل شيء.

- عظيم. هشش. هيا اخلدي إلى النوم.

بقيت بمفردي أواجه النافذة وخيوط الضوء المتسللة من فتحات الشيش، ودائرة الضوء الكبيرة في منتصف الشيش المكسور. فكرت في "جيني" وما تفعله حين تتغيب عن المدرسة.

أتخيلها تخبئ حقيبة المدرسة بين الشجيرات في مكانٍ ما، ربما المكان نفسه حيث اعتادت رمي زجاجات لبن "بيبي باور" منذ بضع سنين. أتخيلها مختبئةً عند الناصية في انتظار الأتوبيس، الذي تشير إليه ليتوقف في اللحظة الأخيرة. تصعد السلم وتجلس في الخلف وتبعد رأسها عن النافذة. ثم تنزل منه وتتجول في البلدة وتختفي في مداخل المنازل لو مر رجل شرطةٍ أو شخصٌ قد تعرفه. تعد الساعات أثناء جلوسها في المقاعد الخلفية للكنائس الكبيرة، تراقب ضوء

الشموع الراقص، تجلس على قدميها لتدفئهما، وطوال الوقت تسمع خطوات أقدام القس تقترب.

ثم أتخيلها تقف خارج مدرستي وسط الأشجار وحدها في متنزه "فينيكس". ماذا سترى؟ الأسوار فقط، وربما نوافذ عنبر النوم العلوي، وبرج الكنيسة، وقمة عامود كرة السلة. تركب أتوبيسين وتجتاز هذا الطريق الطويل فقط لترى أسوار.

ثم فكرت بأمي.

أمي نائمةٌ في الشقة التي صنعتها لنفسها، والزجاجات الفارغة تحت السرير. اثنتان كبيرتان وثلاث متوسطة الحجم والكثير من الزجاجات الصغيرة. إنها عائلةٌ من الزجاجات المختبئة تحت السرير.

تذكرت الكلام البذيء الذي قالته "جيني" على لسانها مقلدةً صوتها السكران الفظيع. لم يعد ذلك الكلام مضحكًا بعد أن ذهبت "جيني" في النوم.

أدرت رأسي عن النافذة إلى خلف الكنبة. ما زال طعم الشوكولاتة الحلو في فمي، وما زلت أشعر بملمس الغبار على الكنبة.

ثلاثة أسابيع، سبعةٌ ضرب ثلاثة، واحدٌ وعشرون يومًا.



1974



في النهاية "جاكي ماك" هو من أوصلني إلى المدرسة، لأن أبي كان مضطرًا لأن يكون موجودًا في مكانٍ آخر. شعرتُ بالراحة لأنه لن يوصلني. إنها المرة الأولى التي لم أرغب فيها بالبقاء مع أبي وحدنا، كي لا أسمعه يهين أمي كما كنت أسمعها تهينه.

ظننت أني سأنفجر بالضحك حين عبرت السيارة البوابة أخيرًا. كدت أموت من السعادة عند رؤية مدرستي، والأنوار الساطعة من النوافذ، والممر الممتلئ بالسيارات والأصوات والوجوه.

كل تلك الوجوه المحببة تمر بجواري في الممرات وعلى السُلَّم، بينما أجر حقيبتي صعودًا وأتوقف لقول أهلًا أو مرحبًا بعودتك. أستمع إلى أكاذيبي بشأن هدايا الكريسماس التي حصلت عليها، والوقت الرائع الذي أمضيته في الأسابيع الثلاثة الأخيرة، وكم أشعر بالحزن لأنني عدت.

سريري بانتظاري هنا جوار الجدار عند ركني الخاص، كل شيءٍ تمامًا كما تركته. لا أهتم حتى بالملاءات المتسخة، لأن غسَّالة الملابس في المنزل كانت معطلة ولا أعرف كيف أرسل الغسيل إلى مغسلة "سواتسيكا" في ضاحية "تيرينور".

نظرت من النافذة ورأيت سيارة والد "لورا" تركن جوار الباب. بعد بضع دقائق ستصل "لورا"، و"أوليفيا" أيضًا. على الأرجح لديهما ما تحكيانه عن إجازة الكريسماس يومًا بيوم وبكل التفاصيل. حقيقة إجازتي صارت ثقيلةً في

عقلي، إنها مكدسةً كحقيبتي. تمنيت لو أخبرهما وأفرغ ما بداخلي شيئًا فشيئًا. لكـن لا أعـرف كيف.

فكرت بتحويل الأمر إلى قصة. قصة عن ذلك المنزل، وعن الولدين الجالسين عـلى الـسطح يشربان اللبن من الزجاجات مباشرة، ويلقيان الأحجار على السيارات المـارة. يمكننـي إخبـارهن كيف أن هذا المنزل أثار جنون الجيران بسبب نوافذه المكـسورة وعـشبه الطويـل والخناقـات التي تخترق الجدران كل ليلة. وصبي البار الذي تم إرسـاله ليطـرق بـاب المنـزل في ليلـة رأس السنة ليأخذ النقود من المرأة التي تعيش هناك، لأن صاحب البـار لـن يقـدم لهـا المزيـد مـن الخمر إلى أن تدفع. يمكنني إخبارهما عن الابن والابنة اللذين ذهبا للبـار مـع الـصبي دون أن يتفوها بكلمة، وكان الفتى يتقـدمهما في الـسير طـوال الطريـق. والمـرأة تـصرخ في الجارسـون خارج البار: "أيها القروي أحمر الوجه، أنت مخادع. ابعد يديك القذرتين عنـي وإلا قاضـيتك". يمكنني إخبار زميلاتي عن الفتاة وأخيها وهما يسندان المرأة ليسيرا بها عبر الطريق وهي تترنح بينهما يمنةً ويسارًا. أسمع الفتى يقول لأمه: "عليكِ اللعنة، هيا ابتعـدي". الأم سـكرانة للغايـة لذا لا تستوعب شيئًا. فمها يبدو كأنه يتدلى مـن وجههـا، وحقيبـة يـدها تتـدلى مفتوحـةً مـن ذراعها، ويتساقط منها أحمر شفاه وحلوى النعناع وولاعة سجائر طوال الطريـق. لـو أفرغـت بعض الأمور من رأسي لصارت أخف. لست مضطرةً لقول كل شيء. لـست بحاجـةٍ لقـول مـن هي المرأة صاحبة المنزل. لست مضطرةً لقول إن تلك المرأة هي أمي.

لكن عندها سمعت التصفيق المرتفع لراهبة المسكن وهي تمر لتخبر الجميع أن يعدن إلى أماكنهن. وهذا يعني أن بالكاد لدى "لورا" و"أوليفيا" الوقت لقول: "أهلًا"، والتلويح بأيديهن.

أخرجت الملاءات مـن حقيبتـي بـسرعةٍ للغايـة، وأعـددتُ الفـراش، وارتـديتُ بيجـامتي المتـسخة. تمطـأت بـبطء، وحركـت أصـابع قـدميّ، ودسـستُ أنفـي في النسيج القطني الناعم. شعرت بكل تلك المـساحة الخاصـة بي وحـدي. اسـتمعت

إلى الأصوات المرحة لزميلاتي في المسكن وهن يفرغن حقائبهن وينـادين بعـضهن عـبر فواصـل الأركان. أنا سعيدة، سعيدة، لم أكن يومًا بمثل تلك السعادة.

ثم فجأة وجدت نفسي أبكي.

لم تنطفئ الأضواء بعد. بدأت رئيسة الطالبات العد التنازلي حتى نعود إلى أسرّتنا. صُدِمَتْ حقًا حينما سمعت بكائي. صُدِمَ الجميع أيضًا. توقف كل شيء رويدًا رويـدًا. حتـى "روزمـاري" توقفت عن البكاء وأطلت عليَّ بوجهها الأرجواني المسكين عبر الفاصل.

- "كاري"؟ "كاري".. أهذا أنتِ؟

بدت راهبة المسكن غريبةً وهي تجلس على طرف السرير لاحقًا حين انطفـأت الأنـوار مـا عدا النور اللـيلي في الممـر. بـدت غريبـةً وضـئيلة. وكأنهـا إحـدى الفتيـات بثوبهـا، فـيما عـدا الحجاب الأبيض على رأسها الذي تبرز منه خصلة شعر.

ظلت راهبة المسكن صامتةً لفترةٍ طويلـة، لم تتحـدث عـن الـصلوات أو الـشجاعة. ظلـت صامتةً حتى توقفتُ عن البكاء.

عندئذٍ وقفتْ وتناولتْ منديلًا أبيض ووضعته على أنفي قائلة: "نظفي أنفكِ".

فعلتُ كما طلبت مني، ثم تركت لي المنديل.

قالت راهبة المسكن:

- كنت في المنزل هذا الكريسماس. أعرف كم هي صـعبةٌ العـودة. يـا للغرابـة، كلـما كـان الكريسماس أفضل، صعبت العودة. هل توافقينني؟

مسحت أنفي مجددًا وأجبت:

- نعم، نعم أوافقك.

***

أعطتنا الراهبة المعلمة اختبار كلمات. تقول لنا كلمة واحدة، وعلينا كتابة كل مرادفتها. هناك جائزةٌ لأفضل أداء.

قالت الراهبة المعلمة:

- اخترن كلمة أي كلمة. ثم أريدكن أن تكتبن أكبر عددٍ من الكلمات المترادفات بقدر استطاعتكن. مثلًا كلمة "لطيف". فكرن في كل الكلمات المشابهة لها، مثل محببٍ وجميل والكثير غيرهما. كلماتٌ مختلفة تعني الشيء نفسه. لكن عليكن التفكير في كلمةٍ أخرى غير كلمة "لطيف"، تكون كلمةً غير معتادةٍ قليلًا. استخدمن مخيلتكن يا فتيات. ابحثن في عقولكن. ستجدن كلماتٍ لا تعرفن حتى أنها موجودة.

بحثت في عقلي عن كلمةٍ مناسبة. حاولت كلمة "بارد"، ثم "حار". ثم كلمة "كبير"، ثم "صغير".

بحثت مجددًا ووجدت كلمةً مختلفة.

كتبت العنوان أعلى الصفحة. ثم أخرجت مسطرتي ووضعت خطًا تحته.

ما أعرفه من كلماتٍ مرادفة لكلمة "سكران":

ثمل، سكران، منتشٍ، فقد صوابه، طار عقله، محبوس العقل، مترنح، سكير، نشوان، فقد رشده، معاقر خمر، منحل، مخبول، مضطرب، مشوش، حثالة، عفن، نتن، عربيد، تالف، حقير، قذر، ليس بوعيه، مدمن خمر، فاجر، سافل، خمورجي، فاسق.

تأملت قائمتي، شعرت بحرقة في عَينَي. ثم مزقتُ الورقة من الكرّاس وطويتها إلى قطعةٍ صغيرة، ثم أخفيتها في جيب بلوزتي.

فتحت صفحةً جديدة وضغطها بيدي ثم عدت لأفكر في كلمة "بارد".

***

لم يحدث شيئًا لفترةٍ طويلة. كل شيءٍ رتيب.

من ثلاثة أسابيعٍ إلى فصلٍ دراسي وحتى اليوم الرابع من هطول الثلج. تم استدعائي من قاعة الطعام أثناء تناولي لوجبة الفطور، بينما ما زال الجو معتمًا في الخارج، تركتُ خلفي وعاءً كاملًا من الـ"كورن فليكس"، ولم أرتشف رشفةً واحدة من الشاي. الجميع ينظر إليَّ.

عبرت قاعة الطعام بوجهٍ مشتعل من الحرج. على الرغم من أني لا أعرف سبب استدعائي.

الراهبة البنية الضيلة تنتظرني في الخارج حاملةً معطفي ووشاحي على ذراعيها. عرفت منذ لحظة رؤيتي لها أني لم أرتكب أي خطأ. إذًا هناك خطبٌ آخر.

- أيتها الأخت؟

لم تجبني، بل أمسكت يدي وقادتني عبر المدرسة. سرنا في الممرات نحو مبنى الطالبات الأكبر سنًا، خلف قاعة القداس. خرجنا إلى الصالة الواسعة التي يتوسطها السُلَّم. لاحظت أني أفوق الراهبة الضئيلة طولًا الآن.

وصلنا إلى الباب الرئيسي، وساعدتني الراهبة في ارتداء معطفي. كانت تتحدث برقةٍ شديدة، حتى إنني بالكاد أسمعها، فملت بأذني إلى فم الراهبة الضئيلة كي أسمع ما تقول. إنها تقول إنه لا توجد مشكلةٌ خطيرة، أنا فقط مطلوبةٌ في المنزل.

- لكن لماذا أيتها الأخت؟

- أنا لا أعرف حقًا.

رفعت يدها وعدلت شعري لكي تخفي الدائة الصلعاء الصغيرة في رأسي. ثم استدارت لتفحص ضفيرتي.

قالت "ممتاز" ثم أدارتني لمواجهتها وقبَّلت جبهتي. وقالت لي:

- هناك تاكسي ينتظرك بالخارج. اذهبي، اذهبي بسرعةٍ الآن، هيا. ستعودين إلينا قريبًا يا "كارا". كلما أسرعتِ بالرحيل، أسرعتِ بالعودة.

عبرت باب الصالة الأمامي، ووقفت على السلالم لثانية. عرفت في قلبي أن هذا ليس صحيحًا. أشعر بكل الوجوه التي تراقبني من خلال نوافذ قاعة الطعام الضبابية. المئات من العيون التي تنتظرني لأركب التاكسي.

فتحت الباب وكنت على وشك الركوب حين سمعت الراهبة البنية الضئيلة تناديني. استدرت ورأيتها تجري نحو التاكسي. قدماها الرقيقتان تجريان على الثلج. تمسك رداءها بإحدى يديها لترفعه عن الثلج، واليد الأخرى تتدلى منها المسبحة. وضعت المسبحة في يدي وقالت:

- اعتني بهذه من أجلي يا "كارا". أحضريها معكِ حين تعودين سالمة.

أخذتُ المسبحة وركبتُ التاكسي. نظرتُ من النافذة الأخرى إلى الملاعب البيضاء والسماء التي بدأ الضوء ينتشر بها.

***

لا توجد أي سياراتٍ في الممر، بل فقط آثار إطارات. التليفون يرن، بينما يفتح "لوك" الباب. قال:

- ظننتك "جيني" قد عادت بالحليب من المحل.

- لماذا؟ أين بائع اللبن؟

- لم يعد يأتي.

دخلت الصالة ونظرت إلى السلالم. رأيتُ باب شقة أمي التي صنعتها لنفسها مفتوحًا عن آخره. توقف رنين التليفون، بينما أصعد السُلَّم. سرير أمي فارغ، والغرفة في حالة فوضى. عاد التليفون ليرن، بينما أنزل السُلَّم. عرفت أنه حتمًا أبي. استمعت إلى صوته في التليفون كما سمعت الأصوات التي في الخلفية: صوت عملات معدنية، وضغطة زر الاتصال.

- أبي، أهذا أنت؟

أسمع صوت تنفسه وكأنه يبحث عن كلماتٍ وسط عتمة عقله.

- أبي؟ أبي؟ هل أنت على الخط؟ هل أمي معك؟

- أرسلي...

- أرسل؟ ماذا تعني؟ أرسل ماذا يا أبي؟

- أرسلي...

- أبي، أنا لا أعرف حتى ما الذي تتحدث عنه. لمَ أخرجتني من المدرسة؟ لماذا؟ وأين أمي.

- الولدان، أرسلي الولدين إلى المدرسة، الولدان و"ديرديري". ابقي أنتِ و"جيني" في المنـزل واعتنيا بـ"مايكل"، ونظفا الفوضى.

- وأين أمي؟

- أرسلي الولدين للمدرسة، هما و"ديرديري". اهتمي بـ"مايكل" أنتِ و"جيني". تأكدا مـن أن يرتدي الجميع ملابس ثقيلة. وعندما تنظفان الفوضى انتبهـا لأيـديكما. أتـسمعينني الآن؟ أظن أن الثلج على وشك التوقف، لكن تأكدي من أن يرتدي الجميع ملابس ثقيلة.

- هل أمي...؟

- ونظفي الفوضى، وانتظري بالمنزل. هذا كل شيء.

- أبي؟ أبي؟ أما زلت على الخط؟

انتظرتُ قليلًا في حال اتصل ثانية.

المنزل بأكمله كئيبٌ وصامت. الأنوار حادةٌ وباهتـة، وهـذا يـصيبني بـالجنون، لأنه من غير المنطقـي أن تكـون الأنـوار حـادةً وباهتـة في الوقـت نفـسه. لا شيء

بخصوص الثلج صار منطقيًا بالنسبة لي الآن، الهواء البارد ينتظر أن نفتح الباب لينقض علينا. منظر الثلج المسالم خلال النافذة تُنسيك كم ستتألم عندما تخرج وتلمسه. الثلج يجمد ساقيك ويمزق وجهك ويسحق أصابع يديك وقدميك. إنه يخدع الوقت ليجعله يمر ببطء. قلت في نفسي أن أبي على خطأٍ حتمًا بشأن الثلج، فهو لن يتوقف أبدًا. حتى لو توقفت ندف الثلج عن التساقط سيظل البرد يتحكم في اليوم. وضعت سماعة التليفون على أذني مجددًا، وقلت: "أبي؟".

لكن لم أسمع سوى الصافرة الطويلة الكئيبة لخط الاتصال.

استدرت ورأيت "ديرديري" و"براين" و"لوك" يقفون خلفي. لا أحد يتحدث، ولا حتى "براين". يحدقون في التليفون وفيّ. ثم بدأوا في التحرك والبحث عن اللوازم المدرسية مثل وجبات الغداء وحقائبهم ومعاطفهم.

على أرضية غرفة المعيشة هناك قطعة زجاجٍ تحت فردة الحذاء الطويل، وقطعةً أخرى متناثرة في مكانٍ ما. جوار المدفأة سمعت صوت شيء ينكسر، ربما كان طبقًا أو إطار صورة. هناك أدراج متناثرة، أدوس على بعضها وأدور حول البعض الآخر. هناك أكوام من الورق الذي كان مكدسًا في الأدراج سابقًا. أحد كراسي غرفة الطعام مقلوبٌ في الزاوية، وهناك زجاجةٌ مكسورة تدحرجت على الأرضية حتى توقفت عند الكرسي.

كل الأعين تتجنب النظر للأرضية، ينظرون فقط لتجنب الإصابة.

كل الأعين ما عدا عينيّ "ديرديري". "ديرديري" لا يمكنها التظاهر بعدم الرؤية. مطت رقبتها كي ألف حولها الكوفية، ورفعت ذقنها كي أربط لها القبعة. يمكنني الشعور بخوف أختي من خلال يديّ.

تقفز "ديرديري" بين العوائق، وتدور عيناها على الأرضية ثم تنظر للأسفل عند موطئ قدميها. ذكرني أسلوبها بالخيول. إنها خائفة، وكأن الزجاج كائنٌ حي سينقض عليها وينال منها.

أخرجت "ديرديري" إلى الصالة، حيث الأرضية فارغة، ثم جعلتها ترتدي المزيد من الثياب الثقيلة. تكدسنا جنبًا إلى جنبٍ على أول درجةٍ في السلم بانتظار الأتوبيس الخاص. وضعت ذراعي على أختي الكبرى، وقلت لها:

- انظري إلى نفسك، تبدين في غاية الدفء.

كررت ورائي:

- غاية الدفء، غاية الدفء.

لا أريدها أن تذهب. أريدها أن تبقى هنا معي. تكدسنا معًا على درجةٍ واحدة، وشعرت بدفء "ديرديري" بجواري.

قلت لها:

- لستِ مضطرةً للذهاب يا "ديدي". يمكنكِ البقاء هنا معي ومع "جيني" و"مايكل" إن أردتِ.

- نعم. أين ماما؟ أين ذهبت؟

- ستعود بعد قليل. يمكنك البقاء هنا وأنا سأرعاكِ. أتحبين ذلك؟ يمكننا صنع رجل ثلج.

- نعم. رجل ثلج!

أنارت أضواء الأتوبيس الصالة، وقفزت "ديرديري". قالت:

- بيب بيب! إنه الأتوبيس يا "تاتي"! بيب، إنه الأتوبيس!

كلاكس الأتوبيس مُدوٍّ و"ديرديري" ترد عليه. بيب بيب بيب!

فتحت الباب الأمامي وقلت لها:

- نعم. بيب، إنه الأتوبيس. مهلًا، مهلًا. ألن تعانقيني؟

لكن "ديرديري" اندفعت عبر الباب. قلت لها:

- اعتني بنفسك يا "ديرديري". لا تسقطي. أتسمعينني؟ اعتني بنفسك. احترسي من الثلج.

وقفت على عتبة الباب أشاهد "ديرديري" تتهادي على الممر الخارجي وتخطو بمرحٍ على آثار إطارات سيارة أبي.

اندفع "لوك" و"براين" جوارها، وسارا في أعمق جزء من الثلج ليصلا إلى البوابة. سألتهما:

- ماذا حدث الليلة الماضية؟ "براين"؟ "لوك"؟

قال "لوك":

- لا أعرف.

لم يرد "براين". ركض إلى الأتوبيس وبدأ يدق بيديه عليه وهو يقفز ويصنع وجوهًا غريبة وهو ينظر إلى الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة بالداخل.

"لوك" عاري اليدين، عاري اليدين ومعطفه مفتوح ويقف على الرصيف بينتظر ويراقب. صحت به:

- "لوك"، عد يا "لوك". أين قفازاك وقبعتك؟

نزل عن الرصيف ثم ركض وتزحلق فعبر الشارع بسرعةٍ كبيرة.

تحرك الأتوبيس. أغلقتُ الباب ورأيت أضواء سيارة أبي التي سرعان ما أنارت الصالة.

حتى في المطبخ الجديد يبدو أبي كبيرًا للغاية. تمامًا كما يقود في سيارته الصغيرة. احتك معطفه بمنشفةٍ معلقةٍ على ظهر كرسي فسقطت على الأرض. ضغط بكعب حذائه على علبةٍ من "الكورن فليكس" الخاصة بالفطور، كانت واقعة بين فوضى الأرضية. أعجز عن رؤية عينيه تحت القبعة، لكني أرى ذقنه شائكةً وسوداء. قميص بيجامته يبرز من أسفل معطفه، وطرف بنطلون بيجامته يبرز من تحت بنطلونه الجينز.

استغرقت بضع ثوانٍ لألاحظ دخول "جيني" ووقوفها خلف أبي. كانت تحمل زجاجة حليب في كل يد.

سألت:

- أين أمي؟

فتح الخزانة الصغيرة تحت الحوض وأخرج منها زجاجة براندي. ثم بدأ يبحث عن كأس. قال:

- تبًا لذلك.

أخذ كوبًا من المصفاة.

تعالى صوت فقاقيع البراندي في الكوب، وامتلأ المطبخ برائحة الكريسماس.

سألتُ مجددًا:

- أبي أرجوك، أين أمي؟

حك ذقنه لوهلةٍ ثم قال:

- في المستشفى.

- لماذا؟ ماذا حدث لها؟ أجبني يا أبي. "جيني"؟

قالت "جيني":

- لقد حطمت المكان ثم حاولت الانتحار.

أكد أبي:

- هذا صحيح. لقد حطمت المكان ثم حاولت الانتحار. أتعلمين لماذا؟ أتعلمين لماذا؟ لأنكم جميعًا دفعتموها إلى ذلك.

قالت "جيني" وهي تفسح مكانًا للبن على المائدة:

- نحن؟ نحن؟

- غيابك عن المدرسة وأفعال البقية. لا عجب في ذلك. دعيني أخبركِ بذلك، إن ماتـت.. إن ماتت...

قلت أنا:

- ليست غلطتنا. ليست كذلك.

- ما تحملته منكم جميعًا، ما تحملته...

- أنا لا أعيش هنا حتى يا أبي. لا أعيش في هذا المنزل حتى.

قال لي وهو يشير إلى "جيني":

- اسأليها عن غيابها عن المدرسة، اسأليها.

يمكنني سماع صوتي وأنا أصرخ.

كنت أصرخ أولًا ثم مزجت الكلام بالصراخ وأنا أقول:

- إنها ليست غلطتنا يا أبي. إنها غلطتك، غلطتك أنت. إنها غلطتك بالكامل.

بقي ثابتًا قليلًا، ثم وضع يده في جيبه وأخرج روزمة من النقود. بلل إبهامه بلسانه مـرتين وسحب ورقتين، ثم وضعهما على المائدة بحدة. قال إنهما من أجل الرسائل.

شرب البراندي ووضع الكوب في الحوض. ثم اتجه إلى الباب.

توقف قليلًا، ثم نظر إلينا ثم نظر إلينا، وقال:

- أنا، أنا...

لكنه لم يكمل.

ظننته يبكي. أردت الجري خلفه ومعانقته. لكني خفت من لمسه الآن. على كل حال لـدي الكثير لأفعلـه. عـليَّ تنظيـف المطـبخ ثـم غرفـة المعيـشة. سـألتقط الزجاجـات وقطـع الزينـة المكسورة، وإطار الصورة المشروخ من المنتصف. ثم سأعد إفطار "مايكل". كدت أنـسى إفطـار "مايكل" ومريلة طعامه التي ستكون بحاجةٍ للتغيير، و...

شعرت بيديَّ ترتعشان وأنا أمسك بقماش التنظيف، والطبق يكاد ينزلق مني. هـذا يعنـي المزيد من الحطام على الأرضية. وضعت الطبق أرضًا ووقفت في منتصف الغرفة.

وضعت "جيني" الغلاية وهمست لي:

- اسألي "أليس". "أليس" تعلم.

***

عانقتني "أليس" عند الباب، مما جعلني أؤمن أن ما حـدث لأمـي حقيقـي. ثـم أدخلتنـي الغرفة التي تسميها غرفة الإفطار في منزلها.

وضعت "أليس" سترةً صفراء ناعمة حول كتفيَّ، وأجلستني جوار المدفأة. قـدمت لي شـايًا مسكرًا ساخنًا لأشربه ومربى البرتقال الثقيلة على التوست لأتناولها.

قلت لها:

- حاولت أمي الانتحار، ربما تموت.

- أوه لا يا عزيزتي. إنها لن تموت. بحق الـلـه أين سمعتِ ذلك؟

- أخبرني أبي. قال إنها غلطتنا.

- غلطة من؟

- نحن. لأننا وقحون ولأن "جيني" تتغيب عن المدرسة.

ركعت "أليس" جوار كرسيٍّ وأمـسكت بـذراعيَّ. بـدا وجههـا مختلفًـا عـن العـادة. بـشرتها شاحبة، وعيناها فارغتان، وشفتاها تضيقان حين تتحدث. قالت:

- اسمعيني الآن يا "كارولين". لن تموت أمكِ. لم تحاول الانتحار مطلقًا.

- لماذا هي في المستشفى إذًا؟

- تناولت جرعةً زائدة من الحبوب المنومة بالخطأ يا حبيبتي، هذا كل شيء.

- بالخطأ؟

- نعم، كانت حادثة. من بالمنزل الآن؟

- "جيني" و"مايكل". وربما أبي. لكنه ربما خرج الآن.

قالت "أليس":

- انظري، سأرتدي ملابسي وأوصلك إلى المنزل. أنهي الساندويتش. أنتِ فتاةٌ طيبة. اشربي المزيد من الشاي. سأعود في لمح البصر.

الجو دافئ في منزل "أليس"، في غرفة الفطور الجميلة، طبق الفاكهة الكبير على مائدةٍ لامعة، وهناك سجادةٌ حمراء داكنة على الأرض. الأصوات لطيفةٌ أيضًا، صوت رجلٍ على الراديو يقول النكات، غسالة الملابس في الغرفة المجاورة التي تسميها "أليس" غرفة الأعمال المنزلية. حتى الباحة الخلفية للمنزل تبدو لطيفةً عندما أنظر من النافذة. هناك زحليقة وأرجوحةٌ ومظلة خشبيةٌ أنيقة عند الجدار. هناك رجل ثلجٍ تتحول حوافه للون البني كالفاكهة الذابلة. أردت البقاء هنا، وسترة "أليس" توفر لي الدفء.

عادت "أليس" متوردة الوجه. سألتها:

- إن كان أبي يعلم أنها حادثة.. أعني إن كان يعلم حقًا أنها حادثة.. إذًا لماذا؟ لماذا قال ما قاله؟

- إنه فقط مستاءٌ يا حبيبتي، هذا كل شيء. أراد أن يلوم شخصًا ما. دومًا يريد أن يلوم شخصًا ما. أنت تعرفينه جيدًا.

- نعم.

نعم، أعرفه جيدًا. لكن حينما فكرت في الأمر اكتشفت أني لا أعرفه.

***

عادت أمي إلى المنزل بعد بضعة أيام. كانت ضعيفةً وشاحبة بسبب تناول جرعةٍ زائدة من الحبوب بالخطأ.

أو بسبب محاولتها الانتحار كما أصرت "جيني".

سار أبي بها برفقٍ إلى غرفة المعيشة وهو يحيطها بإحدى ذراعيه، أما الذراع الأخرى تحمل حقيبتها. قال بابتسامةٍ واسعة:

- انظروا من عاد للمنزل! انظروا من معي!

ركضت "ديرديري" لتعانق أمي، اقترب "براين" و"لوك" منها ثم توقفا، "مايكل" اختبأ خلف "جيني" وظل ينظر بخجل. بقيتُ بجوار الجدار وانتظرت لأرى إن كانت أمي ستخبرنا أين كانت ولماذا. ثم تذكرت أن أمي لا تبرر أفعالها أبدًا. تقول دومًا: "أنا لست مضطرةً لتبرير أفعالي لكِ، لستً مضطرةً لتبرير أفعالي لأي شخص".

ثم طلب أبي أن نطفئ التليفزيون ونرحب بأمي.

قالت أمي: "مرحبًا"، وقالت إننا جميعًا نبدو في خير حال، وإننا جعلنا المنزل جميلًا ونظيفًا. بالكاد أسمع ما تقول. لذا حتى إن أرادت إخبارنا بما يتعلق بأين كانت ولماذا، فسنعجز عن سماعها، فصوتها خفيضٌ للغاية.

ثم قالت إنها متعبةٌ قليلًا.

لذا أخذها أبي إلى السرير. لم يأخذها إلى شقتها العلوية التي صنعتها لنفسها، بل لغرفتها القديمة، حيث اعتادت النوم سابقًا.

خرج بعد بضع دقائق لاحقًا وقال إنه يريد محادثتنا قليلًا. ثم طلب منا الجلوس على الكنبة.

قال أبي:

- إن أمكم كانت مريضةً للغاية، لكنها ستتحسن قريبًا. علينا جميعًا مساعدتها. كونوا مطيعين، مطيعين للغاية. لا شجار، لا صياح. أتسمعني الآن يا "براين" الهائج؟ لا عبث، ولا مزيد من التغيب عن المدرسة أيتها الآنسة. (قالها وهو يغمز بخفةٍ لـ"جيني").

أكمل كلامه:

- أعرف أن الأمور لم تكن بغاية الروعة، لكن كل شيءٍ سيتغير من الآن فصاعدًا. كل شيءٍ سيختلف. سأصلح المنزل بأكمله، حتى إنكم لن تصدقوا حين ترونه. سيكون أفضل منزلٍ على الطريق، سيكون كذلك. سنرهق "جاكي ماك" بالعمل، أمَّا الجيران، فلن يعرفوا حتى ما يحدث. أنا حتى أفكر في شراء تليفزيون ملونٍ لأمكم! وخمنوا ماذا؟ أقلعت أمكم عن شرب الخمر. لذا ها نحن ذا في بدايةٍ جديدة. لا مزيد من الخمر بالنسبة لأمكم. لا مزيد من الخلافات. وها هو أفضل خبرٍ على الإطلاق. لن تعيش "تاتي" بعيدًا عن عائلتها، ستبقى في المنزل منذ الآن. معنا حيث تنتمي. أليس ذلك رائعًا يا "تاتي"؟

- نعم يا أبي.

- سيتغير الجميع من الآن. كل شيء سيختلف.

ثم أخبرنا أن عليه الخروج قليلًا لمقابلة رجلٍ من أجل عملٍ ما. وعلينا ألا نسبب إزعاجًا لأمي كي تنعم بنومٍ هانئ.

التليفزيون معتمٍ وأخضر، ويعكس صورةً معتمةً خضراء لغرفة المعيشة على شاشته. الشاشة مقوسة وتثني كل شيءٍ بشكلٍ مضحك. لكن ما زال يمكن تمييزها كغرفة المعيشة من خلال رؤية دولاب أدوات المائدة عند الجدار الخلفي، وطرف أحد الكراسي ذات المساند، وجزءٍ من النافذة، والكنبة في المقدمة.

نظرتُ إلى الشاشة. رأيت أشكال إخوتي وأخواتي مكدسين جنبًا إلى جنبٍ على الكنبة.

رأيتُ شعر "جيني" الطويل الملفوف، وقبعة كرة القدم الخاصة بـ"براين".

رأيتُ "لوك" يحاول مص إبهامه من دون أن يراه أحد.

رأيتُ رأس "ديرديري" ينحني للأمام لترى حذاءها.

رأيتُ الجميع ما عدا نفسي.

أعجز عن رؤية وجهي، فقط رأيت يـدين متـشابكتين لا بـد أنهـما لي، فقـد كنـت أحمـل "مايكل" على ركبتيّ.

بدا الانعكاس أشبه بصورةٍ صغيرةٍ داكنة، موجودة عميقًا في منتصف الشاشة.

وكأننا جالسون هناك نشاهد أنفسنا على التليفزيون.



صدر من سلسلة كتب مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.3	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.4	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.5	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.6	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.7	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.8	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.9	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.10	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.11	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.12	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.13	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.14	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.15	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.16	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.17	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
.18	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
.19	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.20	نساء اسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
.21	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.22	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
.23	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
.24	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
.25	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
.26	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
.27	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
.28	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
.29	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
.30	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
.31	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا

32. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
33. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
34. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
35. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
36. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
37. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
38. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
39. القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
40. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
41. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
42. صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
43. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
44. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامّة:

45. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
46. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
47. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
48. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
49. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
50. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
51. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
52. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
53. لن أمنحك كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
54. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
55. الجري	ثور جوتاس	النرويج
56. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

57.	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
58.	بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
59.	النقطة صفر	ناريك ماليان	الأرمن
60.	وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	الأرمن
61.	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
62.	لأننا كنا في مكان آخر	رشال الخيَّاط	ألمانيا
63.	قصص بسيطة	إنجو شولتز	ألمانيا
64.	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
65.	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
66.	موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
67.	احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
68.	أحلامًا سعيدة يا صغيري	كاسيمو جارميليني	إيطاليا
69.	جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
70.	فندق بروبلمسكي	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
71.	القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
72.	الحب في إسطنبول، الموت في بابل	إسكندر بالا	تركيا
73.	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
74.	فندق البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
75.	أُغلقت القصية	باتريك أورشانديك	التشيك
76.	الكنائس السبع	ميلوس أوربان	التشيك
77.	ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
78.	خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
79.	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
80.	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
81.	فيل في الحديقة	ميرال قريشي	سويسرا
82.	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
83.	رئيس القبيلة الأخير	يي مِاي	الصين
84.	بين الجبل والبحيرة	جوو دا شين	الصين
85.	المغفل	إريك نويوف	فرنسا
86.	دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا

87.	التطهر	صوفي أوسكانين	فنلندا
88.	لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
89.	هرابيشكو	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
90.	دكان الساري	روبا باجوا	الهند
91.	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
92.	هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامّة:

93.	بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
94.	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
95.	خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
96.	ضد الانتخابات	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
97.	النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
98.	اللعب مع الكبار	يوريس ليونديك	هولندا

#كتب_مختلفة #أيرلندا



كيف ترى طفلة آيرلاندية عمرها 4 سنوات الدنيا من حولها؟
"كارولين"، أو "تاتي" كما أطلقوا عليها لكثرة ثرثرتها، وعلاقتها بأبيها المميزة والمختلفة جدًا. يأخذها أبوها معه إلى كل مكان، ويناديها بـ"رفيقتي".
لكن علاقة أبيها بأمها تصل إلي مرحلة خطرة جدًا. كيف تتعامل "تاتي" مع ذلك منذ أن كانت في الرابعة من عمرها، ثم وهي تكبر معنا عبر الرواية سنة وراء سنة.
"تاتي" رواية ستغير وجهة نظرك في رؤية أولادك لك. هي أيضًا ليست مجرد رواية مسلية فقط، لكنها تسجيل محطم للقلوب عن طفلة عانت الكثير من المشاكل في تسلسل من الأحداث التي تجعل هذه الرواية قراءة لا تُقاوم.
"أشعر بالوحدة حين أنتظر أبي وأمي كي يستسلما ويتصالحا. أشعر بالوحدة لأن لا أحد آخر بالمنزل يرغب في الحديث بالرغم من أنه لا أحد آخر واقعٌ في نزاع. الأمر ليس فقط عدم وجود من أتحدث إليه بل أيضًا عدم وجود من أسمعه".



كريستين دوير هيكي

روائية وكاتبة قصص قصيرة. رُشِحَتْ روايتها "تاتي" للقائمة القصيرة لجائزة "أفضل كتاب أيرلندي" عام ٢٠٠٥، كما تم اختيارها للقائمة الطويلة لجائزة "أورانج" في العام نفسه. من رواياتها "الراقصة"، و"المُقامر"، و"صانع البوَّابات".

فازت "كريستين دوير هيكي" مرتين بمسابقة "ليستويل الأسبوعية لمؤلفي القصص القصيرة"، كما فازت بجائزة "الأوبزرفر/ بينجوين" للقصص القصيرة. أحدث رواياتها: "القطار الأخير من ليجوريا" نُشرت عام ٢٠٠٩ وتدور أحداثها بين إيطاليا الفاشية ودبلن في الثلاثينيات.

العربي للنشر والتوزيع

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-336-2





تصميم الغلاف: خالد شريف